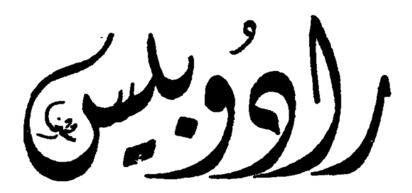

نجیب محفوظ
رادوپیس

راوُوبلیس

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

عيد النيل

لاحت فى الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس ، المنطوى فى أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين . أضناهما التعب طوال الليل ..

وإنه لفى تطلعه إذ عثر بصره بالشعرى اليمانية ، يتألق نورها فى كبد السماء ، فتهلل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى ، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الرب سوتيس فى أفق السماء ، تحمل إلى الوادى بشرى فيضان النيل المعبود ، وتسير بين يدى رحمته . وأيقظ صوته الجميل النيام . فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم فى السماء ..حتى قرت أعينهم على النجم المعبود ، فرددوا ترتيلة الكاهن ، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا ، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة . وردد جو مصر الهادئ صوت كاهن الرب سوتيس ، وأذاع البشرى إلى الجنوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس . فحزموا أمتعتهم ، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو ، يولون وجوههم شطر آبو العاصمة ، فنهبت العجلات الوادى ، ومخرت السفن عباب الماء ..

كانت آبو عاصمة مصر ، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من الصوان ، تؤلف بينها الكثبان الرملية ، وقد غشاها النيل بطبقات من طميه الساحر ، بث فيها الخصب والخير العميم ، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم ، وكست سطحها البقول والخضروات والبرسيم ، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان تجرى من تحتها الأنهار ، وترعاها القطعان ، يطير فى سمائها الحمام والطير ،

ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار ، وتتجاوب فى جوها أغاريد البلابل والأطيار .

فما هى إلا أيام معدودات ، حتى ضاقت آبو وجزيرتاها : بيجة وبيلاق ، بالنازحين ، فامتلأت البيوت بالنازلين ، وازدحمت الميادين بالخيام ، وغصت الطرق بالغادين والرائحين ، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين ، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين ، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون ، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة ، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل ، يوفون بالنذر ، ويقدمون القرابين ، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين .. وشاع فى جو آبو الرزين فرح راقص ، وطرب حار بهيج ..

وجاء يوم العيد الموعود ، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا إلى هدف واحد ، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعونى والهضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة ، وناءت الأرض بحملهم ، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض ، فهبطوا إلى السفن ، وأطلقوا الشرع ، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغانى النيل على أنغام المزمار والقيثار ، ويرقصون على توقيع الدفوف ..

ووقف الجنود صفين على جانبى الطريق العظيم شاهرى الرماح ، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى لملوك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين ، أسر كرى ، وتيتى الأول ، وبيبى الأول ، ومحتمساوف الأول ، وبيبى الثانى .

وكان الجو يضج بأصوات القوم المختلفة ، فيضيع تمييزها كما تضيع الأمواج فى المحيط المصطخب ، ولا يبقى منها إلا دوى هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة ، تخترق الضوضاء ، وتبلغ الآذان ، يهتف بعضها قائلا : « مجدوا الرب سوتيس الذى بشرنا بالخير » . ويصيح صوت آخر : « مجدوا النيل الرب

المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب » . وبين هذا وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط ، وأنبذة آبو ، داعية إلى السرور والنسيان ..

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا ، تبدو على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملا متعجبا :

— كم من فرعون اطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد هذا اليوم العظيم !.. ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور ، ملء الأبصار والأفئدة !.

فقال آخر :

— نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم ، كما سنذهب جميعا .. انظر إلى هذا المكان الذى أشغل .. كم من البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة ، ويجدد الآمال والأفراح التى تخفق فى صدورنا الآن .. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم ؟

— إننا أكثر من أن يذكرنا مذكر .. ألا ليت الموت لم يكن ..

— وهل كان يمكن أن يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت ؟. إن الموت طبيعى كالحياة .. وما قيمة الخلود مادمنا نشبع بعد الجوع ، ونشيخ بعد الشباب ، ونسأم بعد المسرة ؟..

— فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس ؟..

— انتظر ستعلم ذلك بعد حين ..

وقال آخر باهتمام :

— هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون .

فقال له صاحبه :

— أما أنا فقد رأيته يوم التتويج العظيم منذ أشهر فى نفس المكان .

— انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد .

— سترى أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول .

— ما أجمل هذا .

— أجل .. أجل .. إن فرعون شاب جميل ، لا نظير له فى طوله الفارع ، وحسنه الجاهر ..

وتساءل أحد المتحدثين قائلا :

— ترى ماذا يخلف حكمه ؟.. أمسلات ومعابد ، أم ذكريات غزو فى الشمال والجنوب ؟

— إن صدق حدسى فهى الثانية ..

— ولمه ؟

— إنه شاب عظيم البأس .

فهز الآخر رأسه بحذر وقال :

— يقال إن شبابه من نوع جامح ، وإن جلالته ذو أهواء عنيفة ، يغرم بالحب ، ويهوى الإسراف والبذخ ، ويندفع فى سبيله كالريح العاصفة ..

فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلا :

— وهل فى ذاك ما يدعو إلى العجب ؟. ما أكثر المصريين الذين يغرمون بالحب ويهوون الإسراف والبذخ .. فما بالك بفرعون .

— صه .. صه ..، أنت لا تدرى من الأمر شيئا ، ألم تعلم بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش ؟. إنه يريد المال لينفقه فى تشييد القصور ، وغرس البساتين ، والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملا . لقد منحهم آباء الملك نفوذا وثراء ، والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع .

— حقا إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام .

— أجل .. ولا تنس أن خنوم حتب ، رئيس الوزراء والكاهن الأكبر ، رجل حديدى الإرادة ، شديد المراس . وهناك أيضا كاهن منف ، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة .

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة ، وقال :

ــ إذًا فلندع الأرباب جميعا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأى السديد .

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق :

ــ آمين .. آمين .

ولاحت من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل ، فلكز صاحبه بمرفقه قائلا :

ــ انظر أيها الصديق إلى النهر .. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة ، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرقى ؟..

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر ، فرأى سفينة عجيبة ، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء ، تبدو مقصورتها على البعد متعالية ، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها ، ولاح فى أعلى صاريها شراع متموج عظيم ، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدى .. فاستولت الحيرة على الرجل ، وقال :

ــ عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة ..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب ، فحدجهما بنظرة إنكار ، وقال لهما :

ــ أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان .

فضحك الرجلان معا . وقال ثانيهما :

ــ صدقت ياسيدى المحترم ، فنحن من طيبة ، واثنان من الآلاف التى ناداها العيد المجيد فلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان .. هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين ؟.

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذرا :

ــ طبتما نفسا أيها السيدان الكريمان ، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا ، ولكنها امرأة .. أجل هى سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع أهل آبو ، وجزيرتيها بيجة وبيلاق ..

ــ ومن عسى أن تكون هذه الحسناء ؟..

— رادوبيس .. رادوبيس الفاتنة ، ملكة النفوس والأهواء جميعا .

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة ، واستدرك :

— وهى تقيم هناك فى قصرها الأبيض الساحر .. هدف العشاق والمعجبين ، حيث يستبقون إلى نيل عطفها ، واستدرار رحمتها .. وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها ، صانت الأرباب قلبيكما عن التلف ..

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة أخرى ، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد . وكانت السفينة تدنو من الشاطئ ، رويدا رويدا ، والزوارق توسع لها طريقها على عجل ، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل ، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها ، ثم مقصورتها ، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج ، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس ..

ومضت فترة وجيزة ، ثم رئى أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون فى البحر المتلاطم طريقا ، يسير فى أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فاخرا ، لا يحوزه إلا الأمراء والنبلاء ، جلست فيه غادة حسناء ، تستند فى طراءة إلى وسادة ، وتتكئ على نمرقة ، بساعد بض ، وتمسك فى يمناها بمروحة من ريش النعام ، تلوح فى عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حالمة ، تصوبها إلى الأفق البعيد فى كبرياء سامية ، تقتحم الخلق أجمعين .

وكان الركب الصغير يسير على مهل ، ترمقه العيون من كل صوب ، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين ، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلا بجيد كالغزال ، ونثرت من فمها الوردى كلمات تاقت نفوس إلى سماعها : فتوقف العبيد عن السير ، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة إلى جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت تنتظر الموكب الفرعونى الذى لا شك جاءت لمشاهدته .

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها

الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها الصغير فى أسلاك من الحرير اللامع ، ويهبط على كتفيها فى هالة من الليل كأنه تاج إلٰهى ، ينبلج فى وسطه وجه مشرق مستدير ، عانقت فيه أشعة خدين كالورد اليانع ، وفما رقيقا مفترا كأنه زهرة من الياسمين فى الشمس فى خاتم من القرنفل ، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه ، فما رئى وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا .

وقد فتن الناس منظرها كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ، فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت فى طريقها بصوان لأذابته . ورمقتها أعين النساء شررا ومقتا ، وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم إلى فم .

ــ يا لها من امرأة فاتنة ..

ــ رادوبيس .. يسمونها ربة الجزيرة !.

ــ هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

ــ هو اليأس لمن يرى .

ــ صدقت ، فما وقعت عليها عيناى حتى قامت فى نفسى ثورة جامحة ، ونؤت بأعباء ظلم فادح ، وأحسست بتمرد شيطانى ، وصدت نفسى عما بين يدى ، وغلبنى على أمرى الخذلان والخزى الأبدى .

ــ هذا أمر محزن .. لكأنى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .

ــ هى شر وبيل !.

ــ نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر .

ــ ألا رحمة للعاشقين ..

ــ ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة ؟.

ــ حقا ؟..

ــ إن حبها فرض على علية القوم ، كأنه واجب وطنى .

— لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
— وأثثه بآيات منف وطيبة آنى حاكم جزيرة بيجة .
— مرحى .. مرحى ..
— وصنع تماثيله ، ونحت جدرانه ، المثال النابغة هنفر .
— نعم ، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو ، رئيس الحرس الفرعونى .
— إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى تستخلصه لنفسها ؟.
— سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية ..
— لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .
— من أدراك ؟.. عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .
— كلا .. إن جمالها هو القوة الجبارة .. وما حاجة القوة إلى الحب ؟.
— انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية .. إنها لم تذق الحب بعد .

وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث ، فضاق صدرها .

وقالت بجفاء :

— ما هى إلا راقصة .. تربت فى بؤر الفساد والمجون . ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن المساحيق ، فتبدت فى هذا المظهر الخلاب الكاذب .

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :

— معاذ الرب يا سيدتى ، ألم تعلمى بعد أن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثراء ؟.. وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان ؟.

— بخ .. بخ .. من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهى تنفق عمرها فى إغواء الرجال ؟

— قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين ، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهما للحكمة ، وأدراهم

بالسياسة وأذوقهم للفن .

وسأل سائل :

ــ كم عمرها ؟..

ــ يقولون إنها بنت ثلاثين .

ــ لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .

ــ ليكن عمرها ما تشاء ، فهذا الحسن يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدا ..

وعاد السائل يسأل باهتمام :

ــ ما منشؤها ، وما أصلها ؟.

ــ علم هذا عند الأرباب .. وكأنى بها وجدت منذ الأزل فى قصرها الأبيض بجزيرة بيجة !.

* * *

وشقت الصفوف المتراصة بغتة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاءه ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشيبين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتان .. وصاح الذين رأوها :

ــ ضام .. الساحرة ضام ..

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الإطلاع على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها الخارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكم بها . والتقت الساحرة فى طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان فى الحقيقة ثملا يترنح فى سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائمتين ، وسألته بصوتها

الأجش :

— كم عمرك يا غلام ؟

فأجابها ، وهو لا يعى ما يقول :

— اثنتا عشرة كأسا ..

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التى نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذى لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر وسألها بقحة :

— ماذا ينتظرنى من الحادثات يا امرأة ؟

فنظرت إليه مليا ، وهى مغيظة محنقة ، ثم قالت له :

— أبشر .. ستخونك امرأتك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبته وهى تبتسم ابتسامة كريهة :

— أيتها السيدة المحروسة بالعناية .! هل أقرأ لك الطالع ؟.

ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة ، فصرخت العجوز :

— مولاتى !

وانتبهت إليها رادوبيس فيما يشبه الذعر ، ثم عطفت عنها رأسها سريعا وقد لمسها الغضب ، وقالت لها العجوز :

— صدقينى ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك !.

فتقدم منها أحد العبيد ، وحال بينها وبين الهودج . وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين ، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء ، ووضع على أثره الجند المصطفون على جانبى الطريق الأبواق فى أفواههم ، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا ، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه ، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل ، فنسى الجميع ما كانوا فيه

وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرئبة ، وحواس مرهفة .

ومضت دقائق طويلة ثم بدأت طلائع الجيش تسير صفوفا متراصة على أنغام الموسيقى الحربية تتقدمها حامية بيلاق بعددها المتنوعة ، تسير وراء علمها المتوج بصورة الباز ، فكانت الجنود تقابل فى كل مكان بالهتاف والتصفيق ..

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملى الرماح والتروس ، تتأثر موسيقاها ، وعلمها المزدان بصورة الرب حورس ، وقد استقامت الرماح فى صورة هندسية دقيقة ، فرسمت فى الهواء خطوطا متوازية طولا وعرضا .

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملى القسى والسهام . واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن ، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش .

ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل ، ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة فى صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم ، يجر العجلة جوادان مطهمان ، ويقوم على ظهرها فارسان ، سائق مزود بالسيف والمزراق ، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد ، فذكر المشاهدون لمرآها غزور النوبة وطور سيناء ، وخالوا أنهم يرونها تنتشر فى السهول والوديان كالنسور المنقضة ، والعدو يتشتت أمامها ، وقد أذهله الرعب ، وأحاط به الهلاك ، فاشتعل الحماس فى عروقهم نارا ، وشق هتافهم السماوات .

وبدا للناظرين الموكب الفرعونى المهيب ، تتقدمه العجلة الفرعونية ، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسى خماسى ، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم ، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونى على رأسه القائد طاهو ..

ووقف فرعون فى عجلته منتصب القامة ، مهيب الطلعة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة ، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعا ، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب .

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج ، ويقبض بيد على السوط الملكى ،

وبالأخرى على العصا المعقوفة ، وقد ارتدى فوق لباسه الملكى كساء من جلد النمر احتفالا بالعيد الدينى .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة ، فتعالى الهتاف ، فكاد لشدته أن يفزع الطير المحلق فى السماء . وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائية ، وأضاء وجهها بنور بهيج ، وصفقت يداها الرخصتان ..

وأفلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل : « ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب »، فردد هتافه عشرات الأصوات ، وأحدث هتافه انزعاجا وأهاج ضجة شديدة ، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب ، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب !..

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا ، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر ، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد ، فتوقفت العجلات جميعا ، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبى ، فترجل الملك عليها . ونفخ فى الصور ، فأدى الجند التحية العسكرية ، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود ، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تؤدة وجلال ، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام . ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا . ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره ، وأخفى عينيه بيديه ، وقال فى صوت خافت :

ــ يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاى سيد القطرين ، ابن رع ورب المشرقين .

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة ، فقبلها الكاهن فى إجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب ، وطافوا بالمذبح ، وكان الكهنة

يحرقون البخور ، فينتشر أريجه فى جو المعبد ، وتتنفسه الرءوس المنعكسة إجلالا وقنوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى ، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت فى رحابك أيها الإلـٰه المقدس بعد أن طهرت
نفسى . وقدمت القربان زلفى إليك ، فامنن بالخير
على أرض هذا الوادى الطيب ، وأهله الآمنين .

ورددت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر ، يفيض بالإيمان والتقوى ، رافعين رءوسهم إلى السماء ، باسطين أيديهم فى الهواء . وردد الحاضرون جميعا الدعاء ، وسرى الصوت إلى خارج المعبد ، فسارع الناس فى ترديده ، وما هى إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته كاهن المعبد ، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى الصحون الثلاثة المتوازية ، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب ، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة ، تختلج بخفقات القلوب ، فيرن صداها فى جو المكان القاتم المهيب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد ، واقترب من باب قدس الأقداس ، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا ، وركع ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الإلـٰهية ، وأغلق الباب ، وكان المكان واسعا ، شاهق السقف ، شديد الظلمة ، قوى الأثر ، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهاج . ونفذت هيبة المكان إلى قلب الملك الكبير ، فوهنت حواسه ، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس وأزاحه بيده ، وأحنى ظهره الذى لا ينحنى أبدا ، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال . وكان ما يزال مهيبا ، ولكن غابت عن وجهه آى مجد الدنيا وكبريائها ، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى .. وصلى فرعون صلاة

طويلة ، واستغرق فى العبادة ناسيا مجده التالد وعظمته الدنيوية .

ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى ، وقام واقفا وأسدل الستار الكريم ، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب ، حتى تنفس هواء البهو الخارجى ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء ، وساروا وراءه إلى بهو المذبح ، وتبعوه إلى خارج المعبد ، وعرجوا جميعا إلى حافة الهضبة المطلة على النيل . ورآهم الأهلون المتجمعون فوق أسطح السفن ، فتعالت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام والغصون .

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين يديه ورقة طويلة من أوراق البردى ، وتلا بصوت قوى النبرات :

« السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضه الوادى مبشرا بالحياة والسعادة . إنك لتسكن الغياهب أشهرا ، فإذا أصخت إلى توسلات عبادك ، ولان قلبك الكبير رحمة بهم ، خرجت من الظلمات إلى النور ، وانسبت فى بطن الوادى زاخرا ، فتبعث فى الأرض الحياة ، وسرعان ما تهتز النباتات طربا ، وتفض الصحراء تحت بساط سندسى ، وتزدهر البساتين ، وتغنى المغارس ، وتصدح الطير ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ، ويطعم الجائع ، ويروى الصديان ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفع أرض مصر بالسعادة والمجد .. تعاليت والمجد لك .. تعاليت والمجد لك .. »

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار والناى ، وعلى توقيع الدفوف فى ألحان عذبة وأنغام شجية .

ولما أن ضاعت الأنغام فى تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير ناى من فرعون وأسلم إليه قرساطا مختوما من البردى ، يشتمل على دعاء النيل المعبود ، فأخذه الملك ورفعه إلى جبينه ، ثم تركه يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى صخب صوب الشمال ..

وهبط فرعون أدراج الهضبة ، وركب عجلته ، ورجع الموكب كما أتى تحف به العظمة ويحوطه المجد ، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين ، وقد أهاجهم الحماس ، وأسكرتهم نشوة الطرب .

الصـــندل

عاد الموكب الملكى إلى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، إلى أن خلا إلى نفسه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللائى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شديد الغضب ، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها ، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق ، فيظنه إنذارا جريئا موجها إلى رغباته ، فيشتد به الغضب وينذر بالويل والثبور ..

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شىء .. ولبثت الملكة جالسة هنيهة ، ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت فى جلال ، ودنت منه ، ثم شبت على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت :

ــ أغاضب أيضا يا مولاى ؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة فى دمائه ، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة :

ــ كما ترين يا نيتوقريس !

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن واجبها الأول هو

أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه ، فقالت بهدوء وهى تبتسم إليه :

ـــ الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال :

ـــ أتوصيننى بالحلم أيتها الملكة ؟ إنه لثوب زائف يتقنع به الضعفاء .

فقالت الملكة فى تألم ظاهر ..

ـــ مولاى .. لماذا تضيق بالفضائل ذرعا ؟

ـــ أحقا أنا فرعون ؟.. وهل حقا أتمتع بشبابى وقوتى ؟.. فكيف إذا أريد ، ولا أستطيع نيل ما أريد ؟.. كيف تنظر عيناى إلى أراضى مملكتى فيتصدى لى عبد ويقول : لن يكون هذا لك ؟.

فوضعت يدها على ذراعه ، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان ، ولكنه تخلص منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا . غاضبا ساخطا ، فقالت بلهجة تنم على الأسف العميق :

ـــ لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو .. واذكر دائما أن الكهنة رعاياك المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يا مولاى أن تستردها ، فمن الطبيعى أن يقلقوا ..

قال الملك الشاب بحدة :

ـــ أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف فى سبيل رغباتى إلا أن نصف أراضى المملكة فى أيدى أولئك الكهنة .. أيجوز أن تعذبنى رغباتى كالفقراء ؟. ألا سحقا لهذه الحكمة الفارغة ، أوَ تعلمين ماذا حدث اليوم ؟.. لقد هتف نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب .. أرأيت أيتها الملكة ؟.. إنهم يتحدون فرعون عينا لعين !

فاستولت الدهشة على الملكة ، واصفر وجهها الوديع ، وتمتمت بكلمات غير مسموعة ، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة :

ـــ ماذا دهاك أيتها الملكة ؟

أحست بلا شك بانزعاج واستياء ، ولولا أن الملك غاضب إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها تسلطت على انفعالاتها بإرادة من حديد ، وقالت بهدوء :

ـــ دع هذا الحديث إلى وقت آخر ، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب ، وينبغى أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة ..

فنظر فرعون إليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :

ـــ إنى أعرف ما أريد ، وما ينبغى أن أفعل .

وفى الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته فى البهو الرسمى العظيم ، واستمع إلى خطب الكهنة ، وآراء حكام الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك « لم يكن راضيا » ، وحين تفرق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير يسير ، وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه ، لعلهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحراس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة ، ودار فى الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالثأر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجليه فى انتظاره : سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، ورأسه الأشيب ، وطاهو بجسمه القوى الفولاذى الذى تربى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمعا الهتاف الجرىء

الذى عد فى جميع الدوائر تحديا لسلطة فرعون ، وكانا يتوقعان له رجعا شديدا فى نفس الملك الشاب ، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فخفق قلباهما ، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك ، لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الأراضى بمنتهى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه ، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا ..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما ، يرجوان ، ويكابدان قلقا أليما ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبى الهول . وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما ، وكأنه رغب فى أن يمد لهما حبل الوساوس ، فجلس على أريكة فى هدوء ، وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقال :

— يحق لى اليوم أن أغضب وأن أتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى ، ورن فى أذنيهما الهتاف الجرىء مرة أخرى . فرفع سوفخاتب يديه تألما وإشفاقا ، وقال بصوت متهدج :

— تعالى مولاى عن دواعى الألم والغضب !

وقال طاهو بقوة :

— لا يجوز أن يألم مولاى وفى المملكة سلاح لا ينثلم ، ورجال يفتدونه بالأرواح ، حقا أن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم ، يتنكبون سبيل الرشاد ، ويركبون رءوسهم ، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها ..

فأحنى الملك رأسه ناظرا إلى ما تحت قدميه ، وقال :

— إنى أتساءل ، هل قوبل أحد من آبائى وأجدادى طوال عهد حكمة بمثل ما قوبلت به اليوم من هتاف ، وما مضى على جلوسى سوى بضعة أشهر ؟..

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف مخيف ، وقال بيقين :

— القوة يا مولاى .. القوة يا مولاى .. كان أجدادك المقدسون أقوياء ،

يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال ، وسيف كالقضاء ، كن مثلهم يا مولاى ، لا تتردد ولا تركن إلى الحلم ، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة ، تذهل الجبار عن نفسه ، وتخنق فى صدره أوهى الأمل .

ولم يرق هذا الكلام فى عينى الشيخ الحكيم سوفخاتب ، وذعر من حماس قائله ، وأشفق من عواقبه ، فقال :

ـــ مولاى .. إن الكهنة منبثون فى أقطار المملكة كالدم فى الجسم ، منهم : الولاة والقضاة والكتاب والمربون ، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم ، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعونى وحاميه بلاق ، فالضربة القاسية قد تأتى بعواقب غير محمودة ..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة ، فقال :

ـــ وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم ؟.. أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا ، ونرد فى عينيه إلى الهوان ؟

ـــ ليس الكهنة بأعداء لفرعون ، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو ، فالكهنة طائفة مخلصة أمينة . وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال ، وأقسم أنى ما يئست يوما من إيجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاى ، ويحفظ للكهنة حقوقهم .

وكان الملك يستمع إليهما فى هدوء ، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة ، فلما أتم سوفخاتب كلامه ، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين :

ـــ أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان ، فقد أطلقت سهمى .

واستولت الدهشة على الرجلين ، ونظرا إلى الملك فى إشفاق وأمل وخوف . وكان طاهو أدنى إلى الأمل ، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعض على شفتيه ، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة . وقال الملك بلهجة تنم عن الزهو والتشفى :

ـــ تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعا ، ولما أن خلا

المكان ابتدرته قائلا : إن الهتاف باسمه تحت سمعى وبصرى عمل حقير خئون ، وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين ، فرأيته يضطرب ويبهت ، ويحنى رأسه الكبير على صدره الضيق ، وفتح فمه ليتكلم ، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد ..

وقطب الملك جبينه ، وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا بعنف :

— ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدى ، وصارحته بكلام صارم ، مؤكدا له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك الهتاف يردنى عن رأى اعتزمته ، ثم أخبرته بأن نيتى انتهت إلى ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج ، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والنذور ..

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك ، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون ، منكفئ الوجه ، يعانى مرارة الخيبة ؛ وأما طاهو فكان متهللا فرحا ، كأنه يستمع إلى لحن جميل ، يتغنى بمجده وعظمته ، واستدرك الملك قائلا :

— لا شك أن قرارى أذهل خنوم حتب ، وأخرجه عن طوره ، فبدا عليه الجزع ، توسل إلى قائلا : إن أراضى المعابد هى أراضى الأرباب ، وإن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب والفقراء ، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية ، وحاول أن يفيض ، ولكننى أوقفته بإشارة من يدى ، وقلت له : إن هذه هى إرادتى ، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء ، وآذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحا :

— باركتك الأرباب جميعا يا مولاى !

فابتسم الملك ارتياحا ، ولاحت منه نظرة إلى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال :

— أنت رجل مخلص يا سوفخاتب ، ومشير نصوح .. فلا يحزنك أن خولف رأيك .

فقال الراجل :

ــ لست يا مولاى من قوم مغرورين ، يغضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا عن كرامتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان أنذر به ، ليعرف من لا يعرف قدره .. أعوذ بالرب من شر الغرور ، فما يدفعنى إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزننى حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسى ، وما أتمنى على الرب من شيء إلا أن يكذب رأيى ، ليطمئن قلبى ..

وكأن فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

ــ لقد نلت بغيتى ، ولن ينالوا شيئا منى ، فمصر تعبد فرعون ، ولا ترضى عنه بدلا ..

فأمن الرجلان على قول مولاهما بإخلاص ، ولكن كان سوفخاتب مضطربا ، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذى أصدره فرعون ، ويذكر فى ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون فى آبو ، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأى ، وتباث الشكوى ، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر والحزن ، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول .. ولكنه لم يبن عن آرائه ، لأنه وجد الملك فرحا راضيا ضاحك الثغر ، فأشفق من تعكير صفوه ، وبسط صفحة وجهه ، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

ــ لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذى انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة فى حياة أبى ، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .

وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبية ، وصببن الخمر ، وقدمن كئوسا مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين ، فشربوا فى صفاء وهناء ، وعلوا فى نشوة ، وجعل سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز

حواسه فى رحيق مريوط ، ويشارك الملك والقائد سعادتهما ، وكانوا جلوسا صامتين تتبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد ، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس .. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمنا غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم من أحلامهم بعنف ، إذ سقط شيء فى حجر الملك من عل ، فانتفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط الشيء عند قدميه ، وإذا به صندل ذهبى ، ونظروا إلى أعلى دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق فى سماء الحديقة فوق رءوسهم ويبعث فى الفضاء صرصرة مخيفة ، ويصليهم نظرات ملتهبة من عينين متقدتين ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة ..

وعادوا بالنظر إلى الصندل ، والتقطه الملك بيده ، وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة ، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتياب .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلا :

ــ هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أثمنه !.

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

ــ ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلا :

ــ لا يوجد فى حديقتى شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا .

وقال سوفخاتب :

ــ يعتقد العامة يا مولاى أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه يخطف من العذارى من تهوى إليها نفسه ، ويطير بها إلى قمم الجبال ، فلعل هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبته ، ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه ، وسقط عند قدمى مولاى .

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعلا ، ويقول :

ـــ ترى كيف خطفه ؟.. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء ..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

ـــ أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاى ، خلعته مع ثيابها على شاطئ بركة ، وتعرت تستحم ، فجاء النسر وخطفه .

ـــ ورمى به إلى حجرى .. يا للعجب ، لكأنى به يعلم بحبى للحسان !..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :

ـــ أسعدت الآلهة أيامك يا مولاى .

وتبدت الأحلام فى عينى الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان جبينه ، وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه ، ويسائل نفسه ترى من صاحبته ؟ وما صورتها ؟ وهل هى جميلة كصندلها ؟ وكيف لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك وما شأن الأقدار التى نصبته هدفا له ؟. وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه ، فقال وهو يشير إليها :

ـــ ما أجمل هذه الصورة .. إنه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية على يده المبسوطة .

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فالتمعت أعينهما بنور خاطف ، وتطلعا إلى الصندل باهتمام عظيم ، وقال سوفخاتب :

ـــ هل يتنازل مولاى عن الصندل لحظة ؟

فأعطاه ، ونظر إليه كبير الحجاب ، كما نظر إليه طاهو ، ثم رده الرجل إلى الملك وهو يقول :

ـــ صدق حدسى يا مولاى .. هذا صندل رادوبيس غانية بيجة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلا :

ـــ رادوبيس .. يا له من اسم جميل .. من عسى أن تكون صاحبته ؟!..

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

— هى راقصة يا مولاى يعرفها أهل الجنوب جميعا .

فابتسم فرعون وقال :

— ألسنا من أهل الجنوب ؟. حقا أن الملوك قد تخترق أعينها سجف الأفق القصى ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .

واشتد القلق بطاهو ، فقال وقد امتقع لونه :

— إنها امرأة يا مولاى قد طرق بابها رجال آبو وبيجة وبلاق .

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة :

— على أية حال هى صورة أنثوية يا مولاى ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :

— وحق الرب سوتيس إنكما لأخبر أهل الجنوب بها .

فقال سوفخاتب بهدوء :

— إن بهو استقبالها يا مولاى ملتقى أهل الرأى والفن والسياسة .

— حقا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ، هل هى أجمل من رأيت ؟

فقال سوفخاتب باطمئنان :

— هى الجمال عينه يا مولاى ، هى فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم . لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال يوما : إنه من أخطر الأمور فى حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس .

وتنهد طاهو يائسا ، وحدج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ، ثم قال :

— إن جمالها يا مولاى جمال شيطانى رخيص ، لا تضن به على طالب !

فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

— كلا كما يغرينى وصفه .

فقال سوفخاتب :

— ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يا مولاى .

ونزع خيال الملك به إلى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، أضفى عليه ما سمعه نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام . فتساءل وكأنه يحادث نفسه :

— ترى أأحسن النسر فى اختيارنا هدفا له أم أساء ؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال فى حيرة :

— ما هى إلا مصادفة يا مولاى . وما يؤسفنى إلا أن أرى هذا الصندل الملوث بين يدى مولاى المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :

— مصادفة ؟.. إن هذه الكلمة يا مولاى مهضومة الحق ، يظن بها التخبط والعمى ، ومع هذا فهى المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ، فلم يبق للآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق ، كلا يا مولاى ، إن كل حادثة فى هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات — جلت أو تفهت — عبثا أو لهوا .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنونى كاد أن يجرف هدوءه فى حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم على اللوم والتعنيف :

— أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاى ، فى هذه الساعة الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام ؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

— إن الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر فى أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفو لهوه بأمور جده . فمن أدراك أيها القائد ، فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندل

على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه فى وجهيهما واستضحك قائلا :

ـــ أدائما على اختلاف أيها الرجلان ، كما تشاءان . ولكن كان ينبغى أن أجد فى طاهو الرجل مغريا بالهوى ، وفى سوفخاتب الشيخ زاجرا عنه ، وعلى أية حال لا مندوحة لى من الميل مع رأى سوفخاتب فى الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو فى السياسة .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجلان ، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهى تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربى ، وقال وهو يهم بالمسير :

ـــ أمامنا ليلة عمل شاقة . فإلى الغد ، ولسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل فى يده ، فانحنى الرجلان فى إجلال .

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوقف كل منهما بإزاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض وعضلاته الفولاذية ، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينيه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج فى صدر صاحبه ، فيبتسم سوفخاتب ، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم ، فقال :

ـــ غدرت بى أيها الصديق سوفخاتب ، بعد أن لم تطق منازلتى وجها لوجه ..

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكارا ، وقال :

ـــ يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد ، ما لى أنا والحب ؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان ، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أون ؟

ـــ ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق ، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم .. ألم يمل قلبك الفتى يوما إلى رادوبيس ؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفا لم تظفر به أنت ؟

فرفع الشيخ يديه يستعيذ من كلام القائد ، وقال :

ــ إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن ، والحق أنه إذا كان قلبى مال إلى هذه الغانية يوما ، فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع !

ــ أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها إكراما لى ؟

فبدت الدهشة على سوفخاتب ، وقال باهتمام وأسف صادق :

ــ أحقا أنك تجد فى الأمر جدا ؟.. أم أنك ضقت بدعابتى ذرعا ؟..

فقال طاهو بسرعة :

ــ لا هذا ولا ذاك أيها المعظم ، ولكن يسوءنى فقط أن نختلف دائما .

فابتسم كبير الحجاب ، وقال بهدوئه الطبيعى :

ــ لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش !

قصر بيجـة

غاب الموكب الفرعونى من الأنظار ، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة ، فاندفع الناس من جانبى الطريق ، فتلاطمت أمواجهم ، واختلطت أنفاسهم ، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا ، وانقض على أعدائه كاسرا . فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة . وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب فى قلبها نارا وتندفع إلى أطرافها دما حارا . وكانت صورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض ، ونظراته المتعالية ، وقده الرشيق ، وعضلاته المفتولة .

وكانت رأته قبل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل ، وكان يقف فى عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال ، مرسلا بناظريه إلى الأفق البعيد ، وقد تمنت يوم ذاك كما تمنت اليوم لو عطف إليها عينيه .

ترى لماذا ؟.. ألأنها تطمع فى أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم ؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن رأته فى قداسة الأرباب المعبودة؟ كيف السبيل إلى فهم هذا التمنى ؟.. على أنه مهما كانت حقيقته ، فقد تمنت صادقة ، وتمنت مخلصة مشوقة .

لبثت الغانية مستغرقة فى غمرات أحلامها ، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس ، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها ، بنهم وشراهة . وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج فى المقصورة ، واطمأنت إلى عرشها الصغير ، وهى فى شبه غيبوبة تسمع ولا تعى ، وتنظر ولا ترى .. وانسابت بها تشق وجه النيـل الرزين ، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض ، عروس جزيرة بيجة .

وكان القصر يرى عن بعد فى نهاية الحديقة اليانعة التى تنتهى معارجها إلى سيف النيل ، تحوط به أشجار الجميز ، ويحنو عليه النخيل ، كأنه زهرة بيضاء نبتت فى أحضان تلك الجنة الوارفة . فهبطت أدراج السفينة ، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة ، وصعدت سلما من المرمر المصقول ، يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلاف عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيرى نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة ، وقام فى وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعى ، نحته هنفر ، وأفنى فيه دهرا جميلا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة على عرشها الجميل الذى تستقبل عليه المقربين ، ويكشف فى روعة فنية رائعة عن جمال الوجه ، وتكعب الثديين ، ورشاقة القدمين . ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالى أغصانها ، فظلت عليه سقفا من الأزهار والأوراق الخضراء ، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب ، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة ، تنتهى ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبى ، وذات الشمال إلى سورها الشمالى . وكان هذا الممر ينتهى إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراش من عمد رخامية ، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز ، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال ، وانتشرت فى جنباتها المترامية التماثيل والمسلات .

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الأوز والبط وتغنى فى جوها الأطيار ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل .

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة ، فصارت أمام الحجرة الصيفية ، ووجدت فى استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها إجلالا ، ثم وقفن ينتظرن أوامرها ، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظللة تستريح .. ولم يطل بها المقام

فانتفضت واقفة ، وقالت لجواريها :

— كم ضايقتنى أنفاس القوم الحارة .. وكم أرهقنى الحر .. اخلعن ثيابى ، فقد تقت إلى مياه البركة الباردة .

فدنت الجارية الأولى من سيدتها ، ورفعت بخفة خمارها الموشى بالذهب نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية ، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر عما فوق النهدين وما تحت الركبتين ، ثم تبعتهما جاريتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد ، وروعتا الدنيا بجسد طليق ، خلقته الآلهة جميعا ، وادعاه كل لقدرته وفنه !

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم ، فانساب على جسدها ، وغشاه من الجيد إلى الرسغين ، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبى ووضعته على حافة البركة . ومشت الغانية تتهادى ، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل ، ومضى الماء يغمر القدمين ، فالساقين ، فالفخذين ، ثم ألقت بجسمها فى الماء الهادىء يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما . واستسلمت لمداعبة الماء فى رخاوة ، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح ، وسبحت طويلا تارة على بطنها ، وتارة على ظهرها ، وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعير شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواريها ، فتوقفت عن السباحة ، والتفتت إليهن ، فراعها أن رأت نسرا هائلا يحلق من علو قريب من شاطىء البركة ، ويرف بجناحيه ، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع ، وغاصت فى الماء تنتفض فزعا ورعبا ، وتصبرت بجهد جهيد ، وحبست أنفاسها طويلا حتى أحست بالاختناق ، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها فى خوف وحذر ، ونظرت فيما حولها وهى تخشى ، فلم تر شيئا . فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يولى بعيدا يوشك أن يلج باب الأفق ، فسبحت إلى الشاطىء على عجل ، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة ، ووضعت قدمها فى إحدى

زوجى صندلها ، ولكنها لم تجد الأخرى ، وبحثت عنها طويلا ثم سألت :

ـــ أين الأخرى ؟

فأجابها الجوارى فى قلق :

ـــ خطفها النسر !

وتبدى الأسف على وجهها ، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لإعلان سخطها ، فدلفت إلى الحجرة الصيفية ، والجوارى من حولها وبين يديها يجففن جسدها الغض ، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتثر على أديم عاج .

* * *

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف ، وما أكثرهم فى أيام العيد التى تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب ، فارتدت أجمل ثيابها ، وازينت بأفخر حليها ، ثم تركت المرآة إلى بهو الاستقبال ، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم .

وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة ، بناه المعمار هنى ، وجعل صورته على هيئة بيضاوية ، وشيد جدرانه من الجرانيت كبيوت الأرباب ، وكساه بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر الناظرين ، وكان سقفه مقببا تزينه الصور والتهاويل ، وتتدلى منه المصابيح المكفتة بالذهب والفضة .

وزخرف الجدران المثال هنفر ، وتنافس العشاق فى تأثيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة ، والرياش الجميلة . وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعا ، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل ، وقاعدته من الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت ، وقد أهداه إياها حاكم جزيرة بيجة .

ولم يطل انتظار الغانية ، فدخل عبد من عبيدها ، وأعلن قدوم السيد عانن تاجر سن الفيل . ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه الفضفاضة ، ويزهو بشعره المستعار ، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب ، وضعه على كثب من كرسى الغانية ، ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد رادوبيس ، ولثم أناملها ، فابتسمت له ، وقالت بصوتها الحلو :

ـــ أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك ؟. أهكذا لا نراك إلا كل دهر طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا ، وقال :

ـــ ماذا أصنع يا مولاى !.. هى حياتى التى اخترتها أو التى فرضتها الأقدار على ، أن أكون أخا سفر ، جواب أرض ، تتقاذفنى البلدان ، فأقضى نصف عامى فى بلاد النوبة ، ونصفه الثانى ما بين الجنوب والشمال ، أشترى وأبيع ، وأبيع وأشترى ، لا أعرف لحياتى مستقرا !!.

فنظرت إلى الصندوق العاجى وهى لا تزال تبتسم وسألته :

ـــ وما هذا الصندوق الجميل ؟ إخال أنه هدية من هداياك النفيسة !.

ـــ ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه .. هو سن فيل مفترس ، أقسم التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه أربعة من رجاله الأشداء ، فحفظته فى مكان أمين ، ولم أعرضه على الطالبين . ولما ألقيت عصا الترحال فى تنيس ، دفعت به إلى أيدى صانعيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب ، وطلوه من الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك .. وقلت لنفسى : أحرى بتلك الكأس التى كلفت نفوسا غالية ، أن تهدى إلى من تبذل فى سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهى راضية .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة ، وقالت :

ـــ شكرا لك أيها السيد عانن .. إن هديتك على نفاستها لا تعدل بجمال حديثك !

فطرب أيما طرب ، ورنا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسل ، وقال بصوت خافت :

ـــ ما أجملك .. ما أفتنك .. كلما عدت من سفر طويل أجدك أجمل وأفتن مما تركتك ، وكأنى بالزمان ولا عمل له إلا السمو بحسنك الفاتن .

وكانت تصغى إلى إطراء حسنها ، كمن يصغى إلى نغمة معادة ، فطاب لها أن

تتهكم به فسألته :

— كيف حال أبنائك ؟!.

فأحس بشيء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه ، فبدا الكأس نائما على جانبه ، ثم قال وهو يرفع رأسه إليها :

— ما ألذع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى ، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ فى قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك !.

فلم تجبه ، وما تزال تبتسم ، ثم دعته للجلوس فجلس قريبا منها . واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين ، منهم من يتردد على قصرها كل مساء ، ومنهم من لا تراه إلا فى الأعياد والمناسبات ، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة ، ثم رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقة ، وحنجرته الناتئة ، وشعره المفلفل ، وأنفه الأفطس ، وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم . فأعطته يدها ، ولثمها الرجل فى حب عميق . وقالت تداعبه :

— أيها الفنان الكسول .

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال :

— لقد انتهيت من عملى فى زمن قصير .

— والحجرة الصيفية ؟

— هى الباقية بلا زخرف ، وإنه ليؤسفنى أن أقول لك بأنى لن أزخرفها بنفسى .

فبدا التساؤل على وجه رادوبيس ، فقال الرجل :

— سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة ، لأن أمى مريضة ، وقد بعثت إلى رسولا يبلغنى رغبتها فى رؤيتى ، فلم أر بدا من السفر .

— خففت الأرباب عنها وعنك .

فشكرها هنفر وقال :

— لا تظنى أنى نسيت الحجرة الصيفية ، ففى الغد يأتيك أنبغ تلاميذى بنامون بن بسار ، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه ، إنى أثق به ثقتى بنفسى ، ولعلك ترحبين به وتشجعينه .

فشكرته على عنايته بها ، ووعدته خيرا .

واطرد تيار القادمين ، فجاء المعمار هنى ، وقفاه آنى حاكم الجزيرة ، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب . وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف ، الذى كان فى يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر . وقد عاد أخيراً إلى آبو مسقط رأسه ، بعد أن نيف على السبعين من عمره ، وكانت رادوبيس لا تفتأ تداعبه ، فقالت له وهى تستقبله :

— مالى إذا رأيتك أشتهى أن أقبلك ؟

فقال الرجل بهدوء :

— لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمة .

* * *

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا ، وباقات من أزهار اللوتس ، فدهن رءوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب ، وأهدين إلى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوبيس بصوت عال :

— ألم تعلموا بما حدث لى اليوم ؟

فتطلع إليها الجميع بانتباه ، وساد الصمت ، فقالت باسمة :

— نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة ، فهبط نسر بغتة وخطف فردة صندلى الذهبى ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه ، وقال الشاعر رامون حتب :

— إن رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة !

وقال عانن بحماس :

ــ أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل .

فقالت رادوبيس آسفة :

ــ كم كان عزيزا لدى .

فقال هنفر المثال :

ــ من المحزن حقا أن يضيع شيء تمتع بلمسك أياما وأسابيع ، وما مصيره فى النهاية إلا السقوط ، وقد يسقط فى حقل ناء فتطؤه قدم ريفية بسيطة !

فقالت رادوبيس بحزن :

ــ مهما يكن مصيره ، فلن يعود إلى ..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه ، فقال يعزيها :

ــ على أية حال إن خطف النسر لصندلك فأل حسن ، فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

ــ وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه من عشاقها ؟

فرد عليه الفيلسوف قائلا ، وهو يحدجه بنظرة ساخرة .

ــ ينقصها أن تتخلص من بعضهم !

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكئوس الشراب الذهبية ، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفىء الظمأ فى الفم ، وتوقد النار فى القلوب . وقامت رادوبيس على مهل ، وسارت إلى الصندوق العاجى ، ورفعت الكأس العجيبة ، ومدت بها يديها إلى الساقية وهى تقول :

ــ لنشرب نخب السيد عانن لهديته الجميلة ، وعودته السالمة .

فشربوا جميعا هنيئا ، وشرب عانن كأسه حتى الثمالة ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت إلى صاحب له وقال :

— أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمى على لسان رادوبيس ؟

فأمن الرجل على قوله ، وتنبه عند ذاك الحاكم آنى إلى وجود السيد عانن ، وكان يعرفه ، ويعلم بأنه كان فى رحلة فى الجنوب ، فقال له :

— عود سعيد يا عانن ، كيف كانت سفرتك هذه المرة ؟

فأحنى الرجل رأسه احتراما ، وقال :

— حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل ، لم أتوغل هذه المرة فيما وراء إقليم الواوايو ، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب .

— وكيف حال صاحب السمو كارفنرو حاكم الجنوب ؟

— الحق أن سموه يلقى متاعب جمة بسبب تمرد قبائل المعصايو ، فهم يضمرون الكراهية للمصريين ، ويتربصون لهم ، فإذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا تجارتها ، ولاذوا بالفرار أن تبلغهم القوات المصرية .

فبدأ الاستياء على وجه الحاكم ، وسأل التاجر باهتمام :

— ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية ؟

— إن سموه لا ينفك يرسل قواته فى أعقابهم ، ولكنهم لا يواجهون القوات الحربية ، ويفرون فى الصحارى والغابات . فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاد المؤن . ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل .

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن ، وكانت له خبرة ببلاد النوبة ، وكان على علم واف بقضية المعصايو ، فسأل التاجر قائلا :

— لماذا يصر المعصايو دائما على العصيان !.. إن البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتع فى ظله بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا ، فلماذا يناصبوننا العداوة ؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة هى التى تغرى القوم بالانقضاض عليها ، ولكن الحاكم آنى كان متبحرا فى هذه المسائل ، فقال

للفيلسوف :

ـــ الحق يا سيدى الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسية أو دينية . وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون فى أرض جدباء ، ويهددهم الجوع فى كل حين ، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من جوع . فإذا انبرى المصريون لاستثمارها ، هاجموهم ونهبوا قوافلهم .

فقال هوف :

ـــ إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وإنى أذكر يا سيدى الحاكم أن الوزير أونا ـــ تقدست روحه فى عالم أوزوريس ـــ منى نفسه يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمدهم بالغذاء فى مقابل أن يؤمنوا له طرق القوافل .. هى فكرة ثاقبة أليس كذلك ؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

ـــ لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون ..

وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا حلقات ، ومنهم عانن ، وشتتهم شجون الحديث ، وحاولت كل حلقة أن تجذب رادوبيس إليها ، ولكن الغانية جذبها اسم خنوم حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء سير الركب الفرعونى ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحست بلفحة غضب ، فدلفت إلى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ، ورامون حتب ، وقالت بصوت خافت :

ـــ ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب ؟

وكان زوار القصر الأبيض إخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا يعقل ألسنتهم خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حرية مطلقة ، وطمأنينة كاملة . وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدى شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع

الدنيا .

وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى وجه رادوبيس الجميل :

— إنه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .

فقال هنفر :

— نعم ولا شك فى أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب فى أول عهده بالحكم .

وقال هوف بهدوء :

— لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته ، فى حضرة فرعون !.

فقالت رادوبيس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

— ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة .. لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آنى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

— أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات .. فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج ، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف :

— كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة ، يقطعونهم الأراضى ، ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المنزرعة ، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولا شك أن هناك وجوها من المنافع أحق بالمال من المعابد ..

فقال هوف :

— يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الإحسان والبر ،

ويصرحون دائما يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ــ وما هذه الضرورة ؟

ــ أن تشتبك المملكة فى حرب مثلا تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلا ، ثم قالت :

ــ لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آنى :

ــ لقد تورطوا فى خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم يبثون دعاتهم فى الأقاليم ، ويدخلون فى روع الفلاحين أنهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة ..

فتساءلت رادوبيس دهشة :

ــ كيف تواتيهم شجاعتهم ؟!

فقال آنى :

ــ البلاد فى سلام ، والحرس الفرعونى هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تؤاتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية !

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق :

ــ يا لهم من أوغاد !

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأيا فقال :

ــ إذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحد ، وكان مغرما بإثارة الزوابع ، وسأله فى اقتضاب :

ــ وخنوم حتب ؟!.

فهز هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

ــ هو كاهن كما ينبغى ، وسياسى نافع ، وليس من ينكر عليه قوة الإرادة ،

ونفاذ البصيرة .

وتململ الحاكم آنى . وهز رأسه بشىء من العنف ، وقال :

— لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش !

فقالت رادوبيس بحدة :

— بل أعلن غير ذلك !

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

— أنا أعرف خنوم حتب جيدا ، وهو بلا شك مخلص لمولاه ولوطنه .

فقال آنى بغرابة :

— لم يبق إلا أن تصرح بأن فرعون مخطئ ..

— كلا .. إن فرعون شاب سامى الآمال ، يرغب فى أن يكسو بلاده حلة من البهاء ، ولن يأتى ذلك إلا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب فى حيرة شديدة :

— فمن المخطئ إذا ؟!

فقال هوف :

— عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق !

ولكن رادوبيس لم ترتح إلى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض عن الموازنة التى يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان . وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهى أن فرعون سيد البلاد دون منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ولأى سبب ، ونفر قلبها من كل رأى يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأيها لأصحابها ، وختمت كلامها بقولها :

— إنى أعجب متى آمنت بهذا الرأى ؟!

فقال رامون حتب مداعبا :

— حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة .. لا تفرطى فى العجب فالجمال مقنع كالحق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :

ــ أدرن الكئوس أيتها الجوارى .. وهلمى أيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنا شجيا ، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشيق ، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر مريوط ، وهيأها العيد للفرح والمسرة ، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون .

فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن لاحت منها التفاتة إلى التاجر عانن ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا بعيدا عن الجماعات فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة آنى ، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر ، وصرخت فى وجهه : « أصحح » فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها ، فجلست إلى جانبه وسألته :

ــ أكنت نائما ؟

ــ بل كنت أحلم .

ــ آه .. فيمن ؟

ــ فى ليالى بيجة السعيدة ، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالى الخالدات ؟! أيمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد !

فهزت رأسها أن لا ، فجزع ، وسألها بخوف وإشفاق :

ــ لمه ؟

ــ قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيدها بوعد خائن ؟!

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ، فرحبوا بها فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال واحد منهم يدعى شامة :

ــ ألا تشتركين معنا فى الحديث ؟

ــ وفيم تتحدثون ؟

ــ يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلا للتكريم الذى يحبوهم به الفراعنة والوزراء .

ـــ وهل أجمعتم على رأى ؟

ـــ نعم يا مولاتى . على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالى شيئا ، فنظرت رادوبيس إلى حيث يجلس الفنانون : رامون حتب ، وهنفر ، وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر ، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين :

ـــ ينبغى أن يكون هذا الحديث عاما ، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا إن الفن عرض تافه ، وأن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم ؟!

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التى تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هنفر ابتسامة هزء ، أما رامون حتب فاصفر وجهه غضبا ، لأنه كان شديد التأثر ، وكان شامة متعجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

ـــ إنى رجل عمل وجد ، أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لى خيراتها من الأنعم السابغة ، فأفيد ويفيد معى الآلاف من المحتاجين ، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق ..

وأدلى كل من الرجال بدلوه ، إما للتنفيس عن حقد طال حفظه أو لمجرد الثرثرة والإعلان عن النفس ، فقال أحد الكبار يدعى رام :

ـــ من الذى يحكم ويسوس الناس ؟.. من الذى يفتح البلدان ويغزو المعاقل ؟.. من الذى يجلب الثروة والخيرات ؟.. أناس غير الفنانين بلا ريب ..

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر :

ـــ إن الرجال يهيمون بحب النساء ، ويهذون بذكرهن فى خلواتهن ، أما الشعراء فيبسطون هذيانهم فى كلام موزون ، وإلى هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته ، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنا من المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى :

ــ ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما ، ويهيمون فى وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام ، يزعمون أنهم رسل وحى كريم .. والأطفال تكذب كذبهم ، وكثير من العامة ، ولكنهم لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوبيس طويلا ، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر ، وقالت هازئة :

ــ ويحك أيها الرجل .. لماذا إذا تسير مختالا فخورا كأنك بلغت الجبال طولا ؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء ، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعاليا منهم عن الرد على « المتهجمين بغير علم » ، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد ، وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند ذاك ، فالتفتت إلى الفيلسوف هوف . ووجهت إليه هذا السؤال :

ــ وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين ؟

ــ الفن لهو ولعب ، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم ، فلم يملك الحاكم آنى نفسه من الضحك . وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حتب بغضب :

ــ أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدا خالصا ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء ، وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ــ كلا ، ما إلى هذا قصدت ، فاللعب ضرورة ، ولكن ينبغى أن تذكر أنه لعب .

فسأله هنفر بتحد :

ــ هل الإبداع الملهم لعب ؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

— أنت تسميه الإلهام والإبداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال .

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هنى تحثه على خوض المعركة ، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعى . ولكن الرجل لم يلب إغراءها ، لا استهانة منه بالموضوع الذى يثير النقاش ، ولكن اعتقادا منه — إن حقا كان أو وهما — أن هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفر ورامون حتب — على الأخص — بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيجة ، وسأل الفيلسوف بلهجة حاقدة :

— إذا كان الفن لعب خيال ، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به ؟

— لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم الطفولة والخيال !

فهز الشاعر كتفيه استهانة ، وقال :

— إن هذا الكلام لا يستحق الرد عليه ..

وأمن على قوله هنفر ، وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظريه فى الوجوه الساخرة ، وقال بحدة :

— أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا ؟

فقال له عانن ، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :

— ما أتفه هذا .

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :

— ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى . أيجوز أن أذكر اللذة والجمال ، فيقال لى إنها شيء تافه .. وهل توجد غاية فى الدنيا وراء الجمال واللذة ؟!.

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن الغانية ، وقال :

— صدق وحق جمالك يا رادوبيس ، إن الحياة تمضى كحلم سريع الزوال ، فأنا أذكر مثلا أنى حزنت لموت أبى حزنا بالغا وبكيته مر البكاء ، ولكنى الآن إذا عاودتنى ذكراه أسائل نفسى : أحقا عاش ذلك الإنسان على الأرض ؟ أم أنه وهم خادع يتراءى لى فى غبش الظلام ؟!. هكذا الحياة . فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوة ؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال وثراء ؟وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا . وما ساسوا ؟! هباء فى هباء .. قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ، والثروة غرورا . أما اللذة فهى لذة ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك . فكل ما خلا الجمال باطل !

فبدا الجد على وجه رادوبيس الفاتن ، وقالت له وقد لاحت فى عينيها الأحلام :

— ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل أيضا ؟. ألا ترانى أمضى العمر فى دعة وانتهاب لذة ، وتملى الحسن والجمال ؟. ومع هذا فكم يطاردنى الملل والسأم !..

ووجدت رادوبيس أن رامون حتب فى حالة سيئة ، وطالعت الاستياء فى وجه هنفر ، وصمت هنى ، فأشفقت من إيلامهم ، وعدت نفسها مسئولة عما أصابهم ، فقالت تغير مجرى الحديث :

— حسبكم أيها السادة .. فمهما قلتم فلن تنفكوا تطلبون الفن والفنانين ، كم تحبون يا هؤلاء الخصام . إنكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعا للجدل والخصام !..

ضاق الحاكم آنى بالحديث ذرعا ، فقال لها بتوسل :

— اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .

وكان الجميع يتوقون للسماع والطرب ، فضموا توسلاتهم إلى الحاكم ، ووافقت رادوبيس ، وكانت شبعت من الكلام ، واستولى عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها ، وظنت أن الغناء أو الرقص يزيله ، فقامت إلى

عرشها وأمرت بالعازفات فجئن بالدفوف والقيثارة والناى والونج والصفارة ووقفن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل والنقر الرشيق ، يهيئن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى والطرب . ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الذاهلين ، وأنشأت رادوبيس تغنى قصيدة رامون حتب :

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء ، أعيرونى آذانكم
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم
الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم
وقد شبعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم ، فأين
الفراعنة ، أين الساسة ، أين الغزاة ، هل حقا
القبر عتبة الخلود ، ولكن لم يأت من القبر رسول
يطمئن قلوبنا ، فلا يفوتكم طرب ، ولا تفوتكم لذة !
لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ !

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلٰهى حنون ، أطلق الأرواح من قيود الأجسام ، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة ، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا . وشاركت فى التجلى الأعلى ، وظل القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهدون فرحا وحزنا ولذة وألما ..

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إلاه ، فاستبقوا إلى الشراب ، وهدفوا بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين ، وتداعبهم ، وتمازجهم ، وتشاربهم ، ولما دنت من آنى همس فى أذنها :

ـــ أسعدتك الأرباب يا رادوبيس .. جئتك شبحا مثقلا بالتبعات وإخال نفسى الآن طيرا يحلق فى السماء .

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب ، وأهدته زهرة لوتس عوضا

عما فقد ، فقال لها :

ـ يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال ، ألا سحقا لرأيه .. إنه ومضة إلٰهية تشع من عينيك ، وتدور مع وجيب قلبى ، ثم تأتى بالأعاجيب ..

فقالت له ضاحكة :

ـ أيخرج منى شىء يأتى بالأعاجيب ، وأنا أعجز من الرضيع ؟

ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف ، وجلست إلى جانبه ، ولم يكن ذاق خمرا ، فحدجته بنظرة فاتنة ، فضحك الرجل ، وقال متهكما :

ـ يا سوء ما اخترت جليسا .

ـ ألا تحبنى كهؤلاء ؟

ـ ليتنى أستطيع .. ولكنى أجد فيك ما يجده المقرور فى المدفأة .

ـ إذا انصحنى ماذا أصنع بحياتى لأنى اليوم أشكو ؟

ـ أتشكين حقا .. أنعيم وثراء وشكوى ؟

ـ كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم ؟

ـ الجميع يشكو يا رادوبيس ، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين الذين يتلهفون على كسرة خبز ، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يئنون تحت عبء التبعات الجسام ، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى بما قسم لك .

ـ وهل يشكو الناس فى عالم أوزوريس ؟

فابتسم الشيخ وقال :

ـ آه .. إن صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير . أما الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية ، فصبرا أيتها الحسناء ، إنك ما زلت قليلة التجارب .

فعاودتها موجة المجون والسخرية ، وأرادت أن تداعب الفيلسوف ، فقالت بلهجة جدية منصنعة :

— أحقا أنى قليلة التجارب .. إنك لم تر مما رأيت شيئا ؟
— وماذا رأيت مما لم أر ؟
فأشارت ببنانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة :
— رأيت هؤلاء الرجال المبرزين ، وصفوة مصر سيدة الدنيا ، يسجدون عند قدمى ، وقد ردوا إلى الوحشية ، ونسوا حكمتهم ووقارهم ، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة !
ثم ضحكت ضحكة رقيقة ، وجرت فى خفة الغزلان إلى وسط البهو ، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار ، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التى يبدع فيها جسمها اللدن ، ويأتى بالمعجز من الخفة والتثنى ، وغلب الطرب القوم على أنفسهم ، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف ، واتقدت فى الأعين أنوار خاطفة ، وختمت رقصتها ، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها ، وجالت بعينيها فى أوجه القوم الجشعة ، فرأت ما أضحكها قهرا ، وقالت :
— لكأنى بين الذئاب .
وأعجب عانن الثمل بالتشبيه ، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة الجميلة ، وحققت له الخمر ما تمنى ، وظن نفسه ذئبا حقا ، فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا ، ولكنه ثابر على العواء ، وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف ، حتى صار منها على قيد شبر ، ثم قال لها :
— اجعلى هذه الليلة من نصيبى ..
ولكنها لم ترد عليه ، والتفتت إلى الحاكم آنى ، وقد جاء يحييها تحية الوداع ، فأعطته يدها ، ثم تلاه الفيلسوف هوف ، وقد سألته ضاحكة :
— ألا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك ؟
فهز رأسه ضاحكا وقال :
— أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم قفط !.
ورجا كل أن تكون الليلة له ، وألحف فى الرجاء ، وتنافسوا فى ذلك تنافسا

شديدا حتى حرج الأمر . وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال :

ـــ ليكتب كل منكم اسمه فى ورقة ، ولنضع الأسماء جميعا فى صندوق عانن العاجى ، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ ..

واضطر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم ، إلا عانن خشى أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع :

ـــ مولاتى .. أنا رجل سفر ، اليوم بين يديك ، وغدا فى بلد بعيد لا أبلغه إلا بشق الأنفس ، وإن فاتتنى الليلة فقد أخسرها إلى الأبد ..

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم ، وردوا عليه هازئين . وكانت رادوبيس صامتة ..تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها القلق الغريب ، فأحست برغبة فى الفرار والانفراد . وضجرت من الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف ، فقالت :

ـــ لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة ، فلن أكون الليلة لإنسان !

وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين ، لا يصدقون آذانهم ، ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى . فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت :

ـــ إنى تعبة .. دعونى أستريح !..

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان على عجل ..

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها تلك الليلة ، وما تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة .. وشخصت إلى النافذة رأسا وأزاحت عنها الستارة ، ونظرت إلى الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان ، فلذ لها منظرهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت ؟.. لا تدرى ! ولكنها تشعر باضطراب وقلق .. واها .. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة ؟. لقد حاورها الجواب ، ولم يرو غلتها

الحكيم هوف نفسه ، ثم استلقت على سريرها الوثير ، واستسلمت للأحلام ، فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة فى إثر الأخرى : فرأت جموع المصريين المحتشدة .. ورأت عينى الساحرة المتقدتين اللتين جذبتاها إليها بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث الرعشة فى المفاصل .. ثم شاهدت فرعون الشاب فى هالة المجد والجمال ، ثم ذلك النسر المصور الذى انقض على فردة صندلها وطار بها إلى السماء . حقا كان يوما حافلا . ولعل هذا أيقظ عواطفها ، وشرد خيالها ، ووزع نفسها أشتاتا ، مما ذهب ضحية له العشاق البائسون ، إن قلبها يخفق خفقانا شديدا ، ونفسها تضطرم بلهيب غامض ، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة . وكأنها تود أن تنتقل من حال إلى حال ، ولكن أى حال هذه ؟! إنها حيرى لا تدرى شيئا ، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة ؟!

إن ما بها لسحرا مبينا ، فإن لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر .

طاهــو

كانت قلقة مبلبلة موزعة النفس ، فيئست من النوم . وغادرت السرير مرة أخرى ، ودلفت إلى نافذة تطل على الحديقة ، وفتحتها على مصراعيها ووقفت وراءها كالتمثال ، ثم حلت عقدة شعرها ، فانساب فى خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها ، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق ، وملأت رئتيها بهواء الليل الرطب ، ثم وضعت مرفقيها على حافة النافذة ، وأسندت ذقنها إلى كفيها . وتاهت عيناها فى الفضاء الشامل للحديقة . والنيل الجارى وراءها . كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو ، يهب نسيمها متقطعا خفيفا ضعيفا فيراقص الغصون والأوراق رقصا رحيما رقيقا ، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء . أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع ، ترسل شعاعا باهتا ما أن يقترب من الأرض حتى يغرق فى بحار الظلمة .

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيا على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة ؟. هيهات .. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاه ، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة ، وأسلمت إليها خدها الأيمن ، وأغمضت عينيها .

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف : « فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى بما قسم لك » . وتنهدت من أعماق قلبها ، وتساءلت فى حزن . أما من فائدة ترجى من التغيير حقا ؟.. أحقا أن الشكوى تلاحق الإنسان أبدا ؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانا صادقا يصرف قلبها عن طلب التغيير ؟ إن ما بقلبها ثورة جامحة ، تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها ، وتفر خالصة إلى آفاق غامضة مجهولة . فكيف تجد الراحة والقناعة ؟

إنها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى ، ولكنها جزعة برمة بكل شيء .

ولم تترك لأفكارها وأحلامها ، إذ سمعت طرقا خفيفا على باب مخدعها ، فأرهفت أذنيها دهشة ، ونادت قائلة وهى ترفع رأسها :

ــ من ؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة :

ــ أنا يا مولاتى .. أتسمحين لى بالدخول ؟.

فقالت :

ــ تعالى يا شيث ..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها ، ودهشت لوقوف سيدتها ، وأن سريرها لم يمس ، وعاجلتها الغانية قائلة :

ــ ماذا وراءك يا شيث ؟

ــ ورائى رجل ينتظر الإذن بالدخول .

فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :

ــ أى رجل !.. اطرديه دون تردد .

ــ كيف يا مولاتى .. إنه رجل لا يغلق دونه باب هذا القصر .

ــ طاهو .

ــ هو بعينه .

ــ وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فلاحت فى عينى الجارية نظرة ماكرة ، وقالت :

ــ هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتى .

فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية ، لحظات ، ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض . وحياها بانحناءة من رأسه ووقف أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك . ولم يخف عليها شحوب لونه ، وتجعد جبينه ، وظلمة عينيه ، فأنكرته ، وسارت إلى الديوان ، وجلست عليه وسألته :

ــ أراك متعبا .. هل أجهدك العمل ؟

فهز رأسه بالنفى ، وقال باقتضاب :

ــ كلا .

ــ لست كعهدى بك .

ــ حقا !.

ــ لا شك أنك تعلم هذا .. ماذا بك ؟

هو يعلم كل شىء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أداه إليها بنفسه أم لم يؤده . وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد . ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على إرادتها لهان كل شىء ، ولكنه يكاد أن ييأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها :

ــ آه يا رادوبيس ! لو كنت تبادليننى الحب لأمكن أن أتوسل إليك باسم حبنا .

ترى ما حاجته إلى التوسل ؟.. عهدها به رجلا عنيفا يكره التوسل والرجاء ، وطالما قنع بفتنة جسمها ، فما الذى أفزعه !؟. وخفضت عينيها وقالت :

ــ هذا حديث قديم معاد .

فأغضبه قولها على صدقه ، واحتد قائلا :

ــ أعلم ذلك .. ولكنى أعيده لدواع حاضرة .. آه .. لكأن قلبك غار أجوف فى قاع نهر بارد ..

كانت ألفت أمثال هذا المقال ، ولكنها قالت متململة :

ــ هل منعتك شيئا تشتهيه ؟

ــ كلا يا رادوبيس . لقد وهبتنى جسمك الفاتن الذى خلق عذابا للبشر . ولكن طالما طمعت فى قلبك . يا له من قلب يا رادوبيس .. إنه يقف وسط زوابع الشهوات جامدا كأنه ليس منك ، ولطالما ساءلت نفسى متحيرا مغيظا ، ماذا

يعيبنى ؟. ألست رجلا بل أنا رجولة كاملة . والحقيقة أنك بدون قلب ..
وازداد إنكارها له ، ليست هذه المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام ؛ ولكنه كان يقوله ساخرا أو غاضبا غضبا خفيفا .. أما فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فإنه يتكلم بصوت متهدج ويتميز غيظا وحنقا . فما الذى أهاجه ؟ وكأنها أرادت أن تستحثه فسألته :

ــ أجئت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنى هذا الحديث ؟

ــ كلا لم أجىء من أجل هذا الحديث .. ولكننى جئت من أجل أمر خطير .. إن لم يسعفنى الحب فيه ، فلتسعفنى حريتك التى تحرصين عليها .

فنظرت إليه فى اهتمام شديد ، وانتظرت أن يتكلم ، وبلغ به الضيق أشده ، فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لف ولا دوران ، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوب عينيه إلى عينيها :

ــ ينبغى أن تهجرى قصر بيجة ، وأن تفرى من الجزيرة فرارا فى أقرب وقت .. قبل أن ينبلج الصباح .

فارتاعت المرأة لقوله ، ونظرت إليه بعينين لا تصدقانه وسألته :

ــ ما هذا الذى تقوله يا طاهو ؟

ــ أقول إنه ينبغى أن تختفى .. أو تفقدى حريتك .

ــ وماذا يهدد حريتى فى بيجة ؟

فأصر على أسنانه ، وسألها بدوره :

ــ ألم تفقدى شيئا ثمينا ؟

فقالت داهشة :

ــ بلى . فقدت فردة صندلى الذهبى الذى أهديتنيه .

ــ كيف ؟.

ــ خطفه النسر وأنا أستحم فى بركة الحديقة .. ولكنى لا أدرى أى علاقة توجد بين حريتى المهددة وصندلى المفقود ؟

— مهلا يا رادوبيس .. لقد خطفه النسر حقا ، ولكن ألا تدرين أين سقط ؟

وجدته يتكلم بلهجة العارف ، فاستولى عليها العجب وتمتمت قائلة :

— من أين لى بهذا يا طاهو ؟

فتنهد قائلا :

— سقط فى حجر فرعون .

وقرعت هذه الكلمة أذنيها فى هالة من دوى هائل ، ملأ حواسها جميعا ، وأذهلها عن كل شيء . فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين ، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها ، وكان القائد يتفرس وجهها بعينين قلقتين مرتابتين ، ويتساءل : ترى ما وقع الخبر فى نفسها ؟. وما الإحساس الذى يعتلج فى صدرها ؟. وضاق ذرعا . فسألها بصوت خافت :

— ألم أكن محقا فى طلبى ؟

ولكنها لم ترد عليه ، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى إليه . كانت غارقة فى لجج تلتطم فى قلبها الحائر ، فهاله جمودها ، وكبرت عليه حيرتها ، ورأى فى ذلك آية نفر منها قلبه ، فذهب صبره ، واستنفره الغضب ، فغشى بصره ، وصاح بها بصوت أجش شديد :

— فى أى واد تتيهين يا هذه ؟.. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل ؟

فارتجف جسمها من شدة صوته .. والتهب الغضب بقلبها ، وحدجته بنظرة حقد شديدة ، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما يريد ، وسألته ببرود :

— أترى أنه كذلك ؟

— أرى أنك تتغابين يا رادوبيس .

— كم أنك ظالم .. هب أن الصندل سقط فى حجر فرعون ، فهل تراه قاتلى لذلك ؟

— كلا ، ولكنه قلب الصندل بين يديه ، وتساءل عمن عسى أن تكون صاحبته ؟

فخفق قلب الغانية بشدة وسألته :

— وهل وجد الجواب ؟

فأظلمت عيناه ، وقال بصوت متهدج :

— كان هناك إنسان يتربص بى ، جعلته الأقدار صديقا عدوا وعدوا صديقا ، فانتهز الفرصة السانحة ، وطعننى طعنة نجلاء ، فذكرك عند فرعون ذكرا جميلا مغريا ، قدح الرغبة فى قلبه ، وأهاج الشهوة فى صدره .

— سوفخاتب ؟!

— هو بعينه ذاك الصديق العدو ، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشاب .

— وماذا يريد ؟

فعقد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشدة :

— ليس فرعون بالإنسان الذى يرغب فى شىء ، ويعز عليه ، وهو إذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به .

وساد الصمت مرة أخرى ، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطرمة ، وجثم الكابوس على صدر الرجل ، واشتد به الحنق لصمتها ، ولأنها لم تفزع ولم ترتعب ، فقال لها بغيظ :

— ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر ؟ حريتك يا رادوبيس التى تحرصين عليها ، ولا تفرطين فيها . حريتك التي دمرت قلوبا وأهلكت نفوسا ، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة تفتك بأهل بيجة جميعا ، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها ؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها ، وقالت له بسخط :

— أتقذفنى بهذا الوصف الذى تقشعر منه الأبدان ، وكل ذنبى أنى لم أستبح نفسى للرياء ، وأقول لإنسان كذبا إنى أحبه ؟

ــ ولماذا لا تحبين يا رادوبيس ؟ لقد أحب طاهو الجندى الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال ، وتربى على ظهور العجلات . فلماذا لا تحبين أنت ..؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة ، وتساءلت :

ــ ترى هل أملك جوابا على سؤالك ؟

ــ لست أبالى هذا الآن ، فما لهذا جئت .. أسألك ماذا أنت فاعلة ؟.

فقالت بهدوء ، واستسلام عجيب :

ــ لست أدرى .

فاضطرمت عيناه كجمرتين ، والتهمتاها بحنق ، وأحس برغبة جنونية فى تحطيم رأسها . وحدث أن نظرت إليه فتنفس تنفسا عميقا ، وقال :

ــ حسبتك أشد حماسا لحريتك .

ــ وما عسى أن أفعل ؟

فضرب يدا بيد ، وقال :

ــ تفرين يا رادوبيس ! تفرين قبل أن تحملى إلى قصر الحاكم جارية من الجوارى ، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها ، ثم تعيشين هنالك فى وحدة وعبودية ، تنتظرين نوبتك مرة كل عام ، تعيشين ما بقى من حياتك فى جنة حزينة يطوف بها سجن كئيب .. هل خلقت رادوبيس لمثل هذه الحياة ؟!

وثارت ثائرتها غضبا لكرامتها وكبريائها . ترى من الممكن أن يكون حظها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة ؟

أيقدر لها فى النهاية ــ هى التى يستبق إلى رضاها صفوة الرجال ــ أن تقاسم الجوارى قلب فرعون الشاب ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحريم الفرعونى ؟ أتهوى إلى الظلمات بعد النور ، وتتلفع بالهوان بعد العزة ، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبارة الكاملة ؟.. أواه .. ما أبشع التصور وأغرب الخيال .. ولكن هل تفر كما يريد طاهو ؟.. أترضى بالفرار ؟. رادوبيس المعبودة التى لم يحظ بحسنها

وجه ، ولم يشحن بسحرها جسم ، تفر من العبودية ؟.. فمن إذا التى تطمع فى السيادة والاستئثار بالقلوب ؟!.

ودنا منها خطوة ، وقال لها بتوسل :

ـــ رادوبيس .. ماذا تقولين ؟

فعاودها الغضب ، وقالت بسخرية :

ـــ ألا يسوءك أيها القائد أن تغرينى بالهرب من وجه مولاك ؟

وأصابته سخريتها فى صميم قلبه ، فترنح من هول الصدمة ، وقال بسرعة ، وقد أحس بمرارة فى فمه :

ـــ لم يرك مولاى بعد يا رادوبيس . أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد . أنا أسير لهوى جامح لا يعرف الرحمة ، يوردنى موارد الهلاك ، ويطؤنى بقدم الذل والعذاب ، إن صدرى أتون من عذاب ملتهب ، وقد اشتد لهيبه اندلاعا حين أشفق من فقدك إلى الأبد . فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبى ، ولا أخون مولاى المعبود قط .

لم تلق بالا إلى شكواه ، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه ، كانت ما تزال تثور لكبريائها ، ولذلك حين سألها الرجل عما تنوى عمله ، هزت رأسها بعنف كأنما تريد أن تنفض عنها الوساوس الحقيرة وقالت بصوت بارد ملىء بالثقة :

ـــ لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل فى ذهول ويأس ، وسألها :

ـــ هل رضيت بالهوان وأسلمت للذل ؟

فقالت ، وعلى فمها ابتسامة :

ـــ لن تذوق رادوبيس الذل أبدا .

فاستشاط غضبا ، وقال :

ـــ آه لقد فهمت . تحرك شيطانك القديم ، شيطان الغرور والكبر والقوة ، ذلك الشيطان يحتمى ببرودة قلبك الأبدية ، ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين

والتحكم فى المصائر ، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد ، وأراد أن يجرب قوته وسطوته ، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين ، غير عابئ بما يدوس فى سبيله الشيطانى من أشلاء القلوب ، وذوب النفوس ، وأنقاض الآمال .. آه .. لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا الخنجر ؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة ، وقالت :

ـــ لم أمنعك شيئا ، وطالما حذرتك من الإغراء !

ـــ إن هذا الخنجر كفيل بتهدئة نفسى .. كم تكون نهاية طبيعية لرادوبيس ؟

فقالت بهدوء :

ـــ وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو !

فنظر إليها طويلا بعينين جامدتين ، وكان يشعر فى تلك اللحظة الفاصلة بيأس ممت وقنوط خانق ، ولكن غضبه لم ينفجر ، وقال بلهجة باردة قاسية :

ـــ ما أقبحك يا رادوبيس .. أنت صورة بشعة مشوهة ، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر . إن صورتك قبيحة لأنها صورة ميتة ، ولا جمال بلا حياة ، لم تنبض الحياة بصدرك قط ، ولم تدفئ قلبك أبدا . أنت جثة وسيمة القسمات ، ولكنها جثة . لم يبد الحنان فى عينيك ، ولا انفرجت شفتاك عن ألم ، ولا خفق قلبك بالعطف . نظرتك جامدة وقلبك قد من حجر .. أنت جثة ملعونة ، وينبغي أن أكرهك ، وأن أكرهك ما حييت .. وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء لك شيطانك ، ولكنك ستصرعين يوما محطمة النفس ، وهذه نهاية كل شر .. لماذا أقتلك إذا .. لماذا أحمل تبعة قتل جثة ميتة ؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثم ذهب .

ولبثت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين ، حتى غمرها سكون الليل ..

ثم رجعت إلى النافذة . كان الظلام شاملا ، والنجوم ساهرة فى مأدبتها الأبدية ، والسكون مخيما رهيبا ، فخالت أنها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها الدفينة .

كان ما بها قويا عنيفا بالحرارة والقلق ، يقسم أن جسمها جسم نابض بالحياة ، لا جثة هامدة ..

(رادوبيس)

فرعــون

وفتحت عينيها فرأت ظلمة . ترى أما يزال الليـل جاثمـا ، وكم ساعـة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم ؟. ولبثت دقائق لا تعى شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا ، كأنها جهلت الماضى كما تجهل المستقبل ، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكة . وأحست هنيهة بذهول وضيق ، ثم ألفت عيناها الظلمة فبهتت وخفت وطأتها ، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من خصاص النوافذ فتبينت أثاث المخدع ، ورأت المصباح المدلى المكفت بالذهب ، وولج الشعور حواسها ، فذكرت أنها ظلت يقظة لا يذوق جفنيها نوم حتى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادئ ، وأنها ارتمت عند ذاك على السرير ، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها ، وعلى ذلك تكون فى نهار اليوم الثانى ، أو فى مسائه .

وذكرت حوادث الليلة الماضية ، وعادت إلى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغى ويزبد ، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت ، يا له من رجل عنيف ! إنه لرجل جبار شديد الغضب ، وحشى الغرام ، ولا عيب فيه إلا أن حبه عنيد مثابر ، شديد التغلغل . وتمنت صادقة لو ينساها أو يمقتها ، إنها لا تجنى من الحب سوى المشقة . الكل يتلهف على قلبها ، وقلبها زاهد نافر ، كحيوان غير أليف . وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثرة ومآسى أليمة ، وهى كارهة . ولكن المآسى كانت تتبعها كظلها ، وتحوم حولها كخواطرها ، فلوثت حياتها بالقسوة والآلام .

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب فى رؤية صاحبة الصندل ، وأنه سيدعوها حتما إلى حريمه العامر .. آه .. إن فرعون شاب ملتهب الدماء ، جنونى الشباب . كما قيل لها ، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال ، ولا مستحيلا أن تصدق أقواله ، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدا ، إن

ثقتها بنفسها لا حد لها .

وسمعت طرقا على الباب ، فقالت بصوت متكاسل :

ـــ شيث .. ادخلى .

وفتحت الجارية الباب ، ودخلت تسير فى خفتها المعهودة وهى تقول :

ـــ حمدا للرب الذى يسر لك النوم بعد طول السهاد .

وارحمتاه لك يا مولاتى ، لا بد أن الجوع نال منك كل منال .

وفتحت النافذة ، فانبعث منها نور مكلل بسمرة ، وقالت ضاحكة :

ـــ غابت شمس اليوم دون أن تراك ، فباءت من زيارتها للأرض بالخسران .

وسألتها رادوبيس وهى تتمطى وتتثاءب :

ـــ أأتى المساء ؟.

ـــ نعم يا مولاتى ، والآن هل تذهبين إلى الماء المعطر أم تتناولين الطعام ؟.. واأسفاه أنا أعلم بما سهد جفنيك بالأمس !

فسألته باهتمام :

ـــ ما هو يا شيث ؟

ـــ إنك لم تدفئى الفراش برجل :

ـــ خسئت يا ماكرة .

فقالت الجارية وهى تغمز بعينيها :

ـــ الرجال عادة مستبدة يا مولاتى ، ولولا هذا ما احتملت غرورهم .

ـــ حسبك ثرثرة يا شيث .

وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :

ـــ هلمى بنا إلى الحمام .. فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال ، ويؤلمهم أن يروه خاليا منك .

ـــ هل جاءوا حقا ؟.

ـــ وهل خلا بهو استقبالك منهم قط فى هذه الساعة ؟

ـــ لن أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت إلى سيدتها بارتياب ، وقالت :

ـــ خيبت بالأمس آمالهم .. فماذا تقولين اليوم ؟.. آه . لو تعلمين يا مولاتى كم جزعوا لتأخر حضورك .

ـــ آذنيهم بأنى تعبة .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت بها بعنف :

ـــ اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدرى بما غير مولاتها .

وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت إن هذا ليس وقتهم ، فهى لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغى إلى إنسان ، ولا أن تحصر خواطرها فى حديث فضلا عن أن ترقص أو تغنى .. فليذهبوا جميعا .. وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم ، فقامت من السرير وهرولت إلى الحمام ..

وتساءلت فى وحدتها : ترى هل يرسل فرعون فى طلبها هذا المساء ؟. آه أهى لهذا تضطرب وتقلق ؟. أهى تخشى ؟. كلا .. إن هذا الحسن الذى لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد لها ، وإنها لكذلك .. ولن يقاوم جمالها إنسان ، ولن يذل حسنها لمخلوق ، ولو كان فرعون نفسه ، ولكن لماذا إذا هى مضطربة قلقة ! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذى تلبسها مساء الأمس ، والذى نبض بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب الواقف على ظهر عجلته كالتمثال . يا عجبا .. أتراها حائرة لأنها حيال لغز غامض ! واسم جبار هائل ! ورب معبود !، أترى أنها تود لو تراه فى نشوة البشر بعد أن رأته فى جلال الآلهة ؟!. أتراها قلقة لأنها تريد أن تطمئن إلى قوتها بإزاء هذا الحصن المنيع !.

وطرقت شيث باب الحمام ، وقالت إن السيد عانن أرسل معها كتابا إلى مولاتها ، فغضبت الغانية ، وقالت بعنف « مزقيه إربا » ، وخشيت الجارية أن

تثير غضب مولاتها عليها ، فذهبت تتعثر فى الارتباك . وغادرت رادوبيس الحمام إلى مخدعها فى أجمل صورة وأكمل هيئة ، وتناولت الطعام وشربت كأسا مترعة من خمر مريوط . ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان ، فتلقتها بنظرة تحذير ووعيد ، وقالت الجارية فى خوف :

ــ فى البهو رجل غريب يلح فى مقابلتك .

فاستولى الغضب على الغانية ، وصاحت بها :

ــ هل أصابك مس من الجنون يا شيث ؟ أتحالفين أولئك القوم المزعجين على ؟!.

فقالت الجارية وهى تلهث :

ــ صبرا يا مولاتى .. لقد دفعت الزوار جميعا ، أما هذا الرجل فغريب لم تره عينى من قبل .. التقيت بغتة به فى الردهة المؤدية إلى البهو ، ولا أدرى من أين أتى .. وحاولت أن أعترض سبيله ، ولكنه سار بغير مبالاة ، وأمرنى أن أبلغك رجاءه .

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة ، وسألتها باهتمام :

ــ هل هو من ضباط الحرس الفرعونى ؟

ــ كلا يا سيدتى .. إنه لا يرتدى زى الضباط .. وقد سألته أن يعلن لى عن شخصيته ، فهز منكبيه باستخفاف ، فأكدت له أنك لا تقابلين أحدا اليوم .. ولكنه استهان بكلامى ، وأمرنى أن آذنك بانتظاره .. أواه يا مولاتى .. إنى أحرص على رضاك ، ولكنى لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقيل الجرىء .

وتساءلت أيكون هو رسول الملك ؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها .. وجرت إلى المرآة ، وألقت على صورتها نظرة فاحصة ، ثم دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت فى المرآة ، وسألت الجارية :

ــ ماذا ترين يا شيث ؟

فقالت الجارية ، وهى تدهش لتبدل حال مولاتها :

ــ أرى رادوبيس يا مولاتى !

وغادرت الغانية المخدع ، تاركة جاريتها فى دهشتها وحيرتها ، وانتقلت كالحمامة من حجرة إلى حجرة ، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفاخر السجاد ، وتريثت قليلا عند مدخل البهو .. رأت رجلا يوليها ظهره ، ووجهه إلى جدار البهو يطالع شعرا لرامون حتب .. ترى من هو ؟ كان فى مثل طول طاهو ولكنه أميل إلى النحافة والدقة ، عريض المنكبين ، جميل الساقين ، على ظهره وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكبيه ومنطقة وزرته ، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرمى لا تشبه قلنسوات الكهنة ، ترى من يكون ؟. إنه لا يشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ .. ولما صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت خفيض :

ــ سيدى !

فالتفت الرجل الغريب إليها .

رباه !. وجدت نفسها وجها لوجه أمام فرعون . فرعون نفسه بعزته وجلاله ، مرنرع الثانى دون غيره من الخلق !

رباه لقد زعزعت المفاجأة كيانها ، فأخذت قهرا ، وغلبت على أمرها . ترى أهى فى حلم من الأحلام ! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر ، والأنف الأشم الطويل . إنها لا يمكن أن تنساه أبدا ، لقد رأته مرتين ، فنفذ إلى ذاكرتها بقوة ، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول . ولكنها لم تحسب حساب هذا اللقاء ، ولا أخذت أهبتها له ، لم ترسم له خطة من خططها البارعة . وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليا ، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة ؟!. أخذت على غرة ، فقهرت قهرا ! ومنيت بالهزيمة الساحقة ، ويادرت تنحنى لأول مرة فى حياتها ، وتقول بصوت متهدج : « مولاى » .

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة ، فتستقر على وجهها الجميل ، وكان

يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة ، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماتها بنشوة فاتنة ، فلما حيته قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة واللهجة العالية :

ـــ أتعرفيننى ؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقى :

ـــ نعم يا مولاى .. هكذا شاء حظى السعيد أمس .

وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها . وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله ، فلم يعد يأبه لإرادته ، واندفع قائلا :

ـــ إن الملوك قوامون على الناس ، يسهرون على أرواحهم ، وعلى أموالهم ، ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة .

ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه ، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها وهو يقول :

ـــ أليس هذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون ، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئا ، وتمتمت بانفعال شديد :

ـــ صندلى !.

فضحك الملك ضحكة عذبة ، وقال وعيناه لا تتحولان عنها :

ـــ بعينه يا رادوبيس ، أليس هذا اسمك ؟

فأحنت رأسها ، وتمتمت قائلة « نعم يا مولاى » وكانت مضطربة فلم تزد ، أما الملك فاستدرك :

ـــ إنه لصندل جميل ، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه ، وكنت أحسبها زخرفا جميلا حتى وقعت عليك عيناى ، فعلمت أنها حقيقة رهيبة ، وعلمت حقيقة أجل ، وهى أن الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له فى حسبان .

فشبكت كفيها ، وقالت :

ـــ مولاى .. ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك ، أما أن تحمل صندلى .. رباه ماذا أقول ؟.. لقد فقدت جنانى . غفرانك يا مولاى ! ويحى نسيت نفسى يا مولاى ، وتركتك واقفا .

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه ، ثم انحنت باحترام . ولكنه اختار ديوانا وثيرا ، وجلس عليه ، وقال لها :

ـــ ادنى منى يا رادوبيس . اجلسى ها هنا ..

فدنت الغانية حتى سارت على بعد قريب ، ووقفت تغالب اضطرابها وذهولها . فأجلسها بيده ، وأمسك بمعصمها ـــ وكانت أول لمسة ـــ وأجلسها إلى جانبه .. وكان قلبها يخفق بشدة ، فوضعت الصندل جانبا ، وخفضت عينيها ، ونسيت أنها رادوبيس المعبودة ، التى تعبث بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث . غلبتها المفاجأة ، وهز نفسها الشخص المعبود ، كأنه ضوء متوهج سلط على عينيها بغتة ، فانكمشت كعذراء تتصدى لرجلها أول مرة .. إلا أن جمالها الرائع خاض المعركة ـــ بغير علم منها ـــ ثابت الجنان ، عظيم الثقة ، وسلط شعاعه السحرى على عينى الملك الداهشتين كما تسلط الشمس شعاعها الفضى على نائم النبت ، فيصحو ويرف رفيفا فاتنا . كان جمال رادوبيس قاهرا نفاذا ، يحرق من يدنو منه ، ويبعث فى نفسه الجنون ، ويملأ صدره برغبة لا تروى ولا تشبع ..

كانا فى تلك الليلة الخالدة ـــ رادوبيس المتعثرة فى ارتباكها والملك التائه فى الحسن ـــ أحوج بشرين إلى رحمة الآلهة .

وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

ـــ كيف لا تسألينى عن وقوع صندلك بين يدى ؟

فساورها القلق ، وقالت :

ـــ نسيت أمورا أجل يا مولاى .

فابتسم وسألها :

ـــ كيف ضاع منك ؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها ، فقالت :

ـــ خطفه النسر ، وأنا أستحم .

وتنهد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل السقف ، وأغمض عينيه يتخيل ذلك المنظر الفاتن ، إذ رادوبيس تلعب فى الماء بجسمها العارى ، والنسر يهوى من عل فيخطف صندلها . وسمعت الغانية رفيف أنفاسه ، وأحست بها تلفح خدها ، وعاد إلى النظر إلى وجهها ، وقال بوجد :

ـــ خطفه النسر وطار به إلى . يا للقصة الفاتنة !. ولكنى أتساءل منكرا : أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض إلى الرب هذا النسر الكريم ؟.. يا له من فرض محزن ! ومع هذا فإنى أحس فى أعماق بأنه كبر على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى ، فرمانى بالصندل لأنتبه من غفلتى .

فقالت كالداهشة :

ـــ هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاى ؟

ـــ نعم يا رادوبيس .. هذه هى القصة الفاتنة .

ـــ يا لها من مصادفة كالسحر !

ـــ أتقولين مصادفة يا رادوبيس .. وما المصادفة ؟.. إنها قضاء مقنع !.

فتنهدت وقالت :

ـــ صدقت يا مولاى .. إنها كالعاقل المتغابى .

ـــ سأعلن رغبتى على الملأ ألا يعرض إنسان من شعبى لنسر بسوء !.

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة ، ومضت فى ثغرها كتعويذة سحرية . وأحس الملك بهيام يملك قلبه ، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم فى وجد بين ، وقال وهو يتنهد :

ـــ إنه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأثمن ما فى حياتى .. رادوبيس ! كم أنت جميلة ! هذا حسن يزرى بأحلامى جميعا .

وسرت المرأة لقوله ، كأنها تسمعه لأول مرة فى حياتها ، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادته هياما ، فقال وكأنه يضرع ويشكو :

ـــ كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبى .

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق ، وهمس :

ـــ رادوبيس .. أريد أن أنغمر فى أنفاسك .

فبسطت له وجهها ، وأسبلت جفنيها . وجعل يهوى بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق ، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله ، وسها إلى عينيها السوداوين حتى صارت الدنيا ظلاما ، وأذهله الهوى ، فاستولى عليه تخدير ساحر ، حتى تنبه على تنهدها العميق ، فاعتدل قليلا ، وهمس فى أذنها قائلا :

ـــ رادوبيس ! إنى أقرأ أحيانا مصيرى ، سيكون الجنون منذ الساعة شعارى .

وأسندت رأسها إلى كفها إعياء ، وكان قلبها يخفق ، فجلسا ساعة صامتين يسعد كلاهما بحديث نفسه ، وما يحادث ـــ وهو لا يدرى ـــ إلا صاحبه ، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة ، وقالت له :

ـــ هلا اتبعتنى يا مولاى لتشاهد قصرى ؟

كانت دعوة سعيدة .. ولكنها ذكرته بأمور كاد أن ينساها ، فوجد نفسه مضطرا إلى الاعتذار .. وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة . والقصر وما فيه ملك يمينه .. فقال بأسف :

ـــ ليس الليلة يا رادوبيس .

ونظرت إليه بإنكار ، وسألته :

ـــ ولم يا مولاى ؟

ـــ هناك قوم ينتظروننى منذ ساعات فى القصر .

ـــ أى قوم يا مولاى ؟

فضحك الملك ، وقال باستهانة :

— كان ينبغى أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن ، والحق يا رادوبيس أننى منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاق ، وكنت أبيت نية زيارة قصرك ، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية ، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه . أجلت اجتماعا هاما ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبى .

واستولت الدهشة على رادوبيس ، وتمتمت قائلة « مولاى » . وكانت تعجب من استهتاره الذى دفعه إلى تأجيل اجتماع هام من الاجتماعات التى تبرم فيها مصائر المملكة ، لكى يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة .. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا نظير له بين أعمال العشاق ولا شعر الشعراء .

أما الملك فقام بدوره وقال لها :

— أنا ذاهب الآن يا رادوبيس .. واها .. إن القصر خانق .. إنه سجن مسور بالتقاليد ، ولكننى أمرق منها مروق السهم .. سأترك الآن وجها حبيبا لألقى وجها بغيضا ، فهل رأيت أغرب من هذا ؟.. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة . بل إلى الأبد .

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته ، وشبابه ، جنونه .

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه ، فقالت وهى تتنهد : « ذهب .. » ، ولكنه فى الحقيقة لم يذهب ، لو كان ذهب حقا لما استولى عليها ذلك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم واليقظة ، تذكر وتحلم ، والصور تمر أمام مخيلتها فى تزاحم وتسابق وجنون .

حق لها أن تسعد ، لأنها بلغت منتهى المجد ، وتسنمت ذروة البهاء وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض . زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكية ، وصاح بين يديها أن سوطا من اللهب يلهب قلبه الفتى ، فتوجت بهيامه ملكة على عرش المجد والجمال . وحق لها أن تسعد .. على أنها كانت تسعد سعادة المجد !. ومال رأسها قليلا ، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مست شفتاها فارسه ..

ولم تنفرد بأحلامها طويلا إذ دخلت شيث . وقالت :

— مولاتى .. أتنوين أن تنامى هنا ؟

ولم ترد عليها .. وحملت الصندل ، وقامت فى كسل وسارت تتهادى صوب مخدعها . وتشجعت شيث بسكرتها ، فقالت بلهجة حزينة :

— واأسفاه يا مولاتى .. إن هذا البهو الجميل الذى ألف الطرب واللهو ، يقفر الليلة لأول مرة من السمار والعشاق .. ولعله يتحير مثلى سائلا : « أين الغناء ؟ أين الرقص ؟ أين الحب .. هى مشيئتك يا مولاتى .. ».

ولم تبالها الغانية ، وصعدت أدراج السلم فى صمت وسكون ، فظنت شيث أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :

— لشد ما وجموا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك .. وتبادلوا نظرات الحسرة

والحزن العميق ، وتراجعوا فى ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس .

ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت إلى مخدعها الجميل ، وهرعت إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها : « إذا كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة معجزة أيضا » وغمرتها نشوة سعادة ، فالتفتت إلى شيث وسألتها :

ـــ من حسبت الرجل الذى جاء لمقابلتى ؟.

ـــ من هو يا مولاتى ؟. إننى لم أره قبل اليوم . هو شاب غريب ، ولكن لا جدال أنه من النبلاء ، مليح رهيب جسور ، يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع شديد ، ولصوته لهجة الآمر ، ولولا خوفى لقلت : إنه لا يخلو من ..

ـــ من ماذا ؟.

ـــ من جنون ..

ـــ حذار ..

ـــ مولاتى .. مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعا الذين طردتهم اليوم .

ـــ حاذرى أن تندمى حيث لا ينفع الندم .

فقالت شيث داهشة :

ـــ هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آنى ؟

فقالت بزهو :

ـــ إنه فرعون يا حمقاء ..

وحملقت المرأة فى وجه مولاتها . وتدلت شفتها السفلى ، ولم تنطق .

فقالت الغانية ضاحكة :

ـــ هو فرعون يا شيث .. فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ، إياك والثرثرة .. إذهبى الآن ، اغربى عن وجهى . فإنى أريد أن أخلو بنفسى ..

وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة ، وكان الليل جثم فى

مجثمه وأرخى على الكون جناحيه ، وبدت طلائع النجوم فى كبد السماء ، وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار فى الحديقة ، وتبدى الليل فاتنا ، فتذوقت جماله وأحست لأول مرة بأن انفرادها فيه عذب ، بل أعذب من اجتماعها بالعشاق جميعا .. وأصغت فى سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها .. وبعثت الذكريات ، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد ، خفق فيه قلبها خفقة طائشة ، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيجة ، وتغدو للأنفس قضاء لا يرد . كانت ريفية حسناء ، برزت من بين أوراق الريف المخضلة ، كما تبرز الوردة اليانعة ، وكان نوتيا عذب الصوت نحاسى الساقين ، ولا تذكر أنها سلمت لإنسان بداعى قلبها سواه ، وشهدت شواطئ بيجة مشهدا لم تسعد بمثله فى الأرض . ودعاها إلى سفينه فلبت دعاءه ، وحملتها الأمواج من بيجة إلى أقصى الجنوب ، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا . واختفى النوتى من حياتها فجأة ، ولم تدر إن كان ضل ، أو فر ، أو مات ، ووجدت نفسها وحيدة . كلا لم تكن وحيدة ، كان معها جمالها فلم تتشرد ، والتقطها كهل ذو لحية طويلة ، وقلب ضعيف . وطابت لها الحياة وأثرت بموته ، وتوهج نورها فخطف الأبصار ، فانجذبوا إليها كالفراش المجنون ، وألقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوبا فتية ، وأموالا لا تعد ، وبايعوها ملكة للقلوب فى قصر بيجة ، فكانت رادوبيس .. يا للذكريات !.

كيف مات قلبها بعد ذلك ؟.. هل أماته الحزن ، أم الغرور ، أم المجد ؟.. كانت تصغى إلى حديث الحب بأذن صماء ، وقلب مغلق ، فكان منتهى ما يطمع فيه عاشق مدله مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد .

استسلمت للذكريات طويلا ، وكأنما استدعتها لتربطها بأعجب أيام حياتها ، وأسعد أيامها !.

ومضى الوقت وهى لا تحس به إن كانت ساعات أم دقائق ، حتى انتبهت على وقع أقدام ، فالتفتت منزعجة ، فرأت بابها يفتح ، ودخلت شيث لاهثة

وقالت :

ــ مولاتى .. إنه يتبعنى .. ها هو ذا .

ورأته يدخل مطمئنا كأنه يدخل مخدعه الخاص ، فغمرتها دهشة ممزوجة بفرح وصاحت :

ــ مولاى ..

وانسلت شيث خارجا ، وأغلقت الباب ، وألقى الملك نظرة على المخدع الجميل ، وقال ضاحكا :

ــ هل أطلب المغفرة لتهجمى هذا ؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة ، وقالت :

ــ المخدع وصاحبته لك يا مولاى .

فضحك ضحكته الفاتنة . كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة ، وأمسك بمرفقها ، وسار بها إلى الديوان وأجلسها ، وجلس إلى جانبها ، وقال :

ــ كنت أخشى أن يسبقنى النوم إليك .

ــ النوم .. النوم لا يهتدى إلى أمثال هذه الليلة ، يحسبها من فرط نور السعادة نهارا .

فتبدى الجد على وجهه وقال :

ــ إذا احترقنا معا ..

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها فى مثل هذه اليقظة والحياة ، ولم تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الإنسان البديع ، فقد صدق ، إنها تحترق ، ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجرى فيهما الصفاء والمودة .. ثم قالت :

ــ لم يدر بخلدى أنك تعود هذه الليلة ..

ــ ولا دار لى بخلد ، ولكننى رأيت الاجتماع ثقيلا مرهقا ، وأعيانى تركيز فكرى ، واستخفنى الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت

عددا يسيرا ، وأصغيت إليه بعقل مشتت ، ثم ضقت بكل شيء ذرعا ، فقلت له إلى الغد ، ولم أكن أفكر فى العودة ، ولكنى رغبت فى أن أخلو بنفسى للحديث والمناجاة .. فلما خلوت إلى نفسى وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسى قائلا : لماذا أصبر إلى الغد ؟.. وليس من عادتى أن أقاوم عاطفة ، فما عتمت أن وجدتنى ها هنا بين يديك ..

يا لها من عادة سعيدة .. إنها تجنى أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب ..وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

ـــ رادوبيس .. ما أجمل هذا الاسم ، فإن له وقع الموسيقى فى أذنى ومعنى الحب فى قلبى . وهذا الحب شيء عجب ، كيف يصرع رجلا تعمر لياليه الحسان من كل لون وطعم ؟.. إنه حقا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب ؟ إنه قلق معذب يسكن فى قلبى ، وأنشودة إلهية ترتل فى أسمى مكان من روحى . إنه حنين موجع ـإنه أنت . أنت حالة فى كل آية من آيات الدنيا والنفس ، انظرى إلى هيكلى هذا الشديد ، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء ..

إنها تبادله هذا الشعور ، وتحس بصدقه ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين ، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلـٰهية ، وتشاهد صورته فى آيات الدنيا والنفس ، وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة ، فما عتم أن تماست أهدابهما ، فسألها برقة :

ـــ لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس ؟

وفتحت عينيها الجميلتين ، ونظرت إليه بوجد وحنان ، وقالت :

ـــ ما حاجتى إلى الكلام يا مولاى ؟. فطالما كان الكلام يتدفق على لسانى ، وقلبى ميت ، أما الآن ، فقلبى يبعث حيا ، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس ، وتحيا بها .

فابتسم إليها سعيدا ، وقال :

ـــ اختطفنى هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء .

فقالت وهى تبادله الابتسام :

ــ واختطفنى من وسط دنيا عامرة بالرجال .

ــ كنت أتخبط فى دنياى كالحائر ، وأنت منى على بعد ذراع ، وا أسفاه .. كان ينبغى أن أعرفك من أعوام .

ــ كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا .

فشد على قبضة يده بحماس ، وقال :

ــ نعم يا رادوبيس ، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر فى لوحها أجمل قصة حب ، وما أشك فى أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد ، وما ينبغى لنا بعد اليوم أن نفترق . فأجمل ما فى الدنيا أن نرى معا .

فتنهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

ــ نعم يا مولاى ، فلا ينبغى أن نفترق بعد اليوم ، وهاك صدرى حقلا ناضرا ارتع فيه أنى شئت .

فبسط كفها بين يديه ، وضغط عليها بحنو ، وقال :

ــ تعالى إلى يا رادوبيس ، ليغلق هذا القصر على الماضى الغادر ، فإنى أحس بأن كل يوم ضاع من حياتى قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت إلى سعادتى .

كانت كالمخمورة ، ولكن ساورها القلق ، فسألته :

ــ أيريدنى مولاى على أن أنتقل إلى حريمه ؟

فهز رأسه قائلا :

ــ ستنزلين بأعز مكان به ..

فخفضت عينيها ووجمت ، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها ، ووضع أنامل يمناه تحت ذقنها الصغير ، ورفع وجهها إليه وسألها :

ــ مالك ؟

فسألته بعد تردد :

ــ آمر هو يا مولاى ؟.

فانقبض صدره لذكر الأمر ، وقال :

ــ أمر ؟.. كلا يا رادوبيس ، إن لغة الأمر لا تجدى مع الحب ، وإنى ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتى !.. وأعود واحدا من البشر يشق طريقه بلا عون ، ويلقى حظه بغير محاباة ، انسى فرعون مليا ، وأخبرينى ألا ترغبين فى اللحاق بى ؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وترددها ، فقالت بلهجة صادقة :

ــ أرغب فيك يا مولاى رغبتى فى الحياة ، بل الحقيقة أجمل من هذا . الحقيقة أنى لم أحب الحياة حبا صادقا إلا منذ أحببتك ، وأن قيمتها فى نظرى أنها تشعرنى بحبك ، وتسعد حواسى بوجودك ، أليس للمحبين غريزة تصدقهم القول ؟.. سلها عن قلب رادوبيس يا مولاى تعد على أذنيك ما جرى على لسانى ، ولكنى أتساءل حيرى : لماذا أغلق أبوابه إلى الأبد ؟.. إنه أنا بالذات يا مولاى ، فينبغى أن تحبه كما تحبنى . لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لى ، إما صورتى أو اسمى أو تمثال لى . كيف لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار إليك برسالة الحب الخالدة ؟.. كيف لى بهجره وقد خفق قلبى فيه بالحب لأول مرة ؟.. كيف لى بهجره يا مولاى وقد زرتنى فيه بذاتك العالية ؟.. حرى بأى مكان تطؤه قدماك أن يصير ــ كقلبى ــ لك وحدك ، ولا يغلق أبوابه أبدا ..

كان يصغى إليها بحواسه المرهفة ، وقلبه المشبوب الجامح ، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها . ثم لمس بحنو جدائل شعرها الفاحم ، واحتواها بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة رطبت برحيق عذب ، وقال لها :

ــ رادوبيس .. أيتها الحب الممتزج بروحى .. لن يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته ، سيبقى ما بقينا مهدا للحب ، وجنة للهوى ، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات ، سأجعل منه محرابا للحب ، وأصير أرضه وجدرانه ذهبا مصفى .

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة ، وقالت تناجيه :

ــ لتكن مشيئتك يا مولاى ، وإنى أقسم بحبى لأذهبن الغداة إلى معبد الرب سوتيس ، وأغسل جسدى بالزيت المقدس ، لأرحض نفسى من الماضى الشقى ، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد كزهرة تشق الأكمام وتتصدى لشعاع الشمس .

فوضع يدها على قلبه ، ونظر إلى عينيها وقال :

ــ رادوبيس أنا اليوم سعيد ، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتى ، حياتى وحسبى بها من حياة .. انظرى إلى ، فسواد عينيك أشهى لقلبى من نور الدنيا ..

فى تلك الليلة نامت جزيرة بيجة ، وسهر الحب بقصرها الأبيض ، حتى انحسر فى ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحالمة ..

ظـــل الحب

استيقظت فى الضحـــى ، وكان الجو حارا ، والشمس ترسل أشعتها المتوهجة ، فتبث فى الدنيا نورا ونارا ، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن ، وشعرها مبعثرا ، منه خصلات نائمة على صدرها ، وخصلات ملقاة على الوسادة .

طوبى ليقظة تهيج فى القلب أجمل الذكريات .. كان قلبها مرتعا للغبطة ، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار ، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح ، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما تكشف عالما جديدا جميلا ، أو كأنها تبعث خلقا جديدا ..

ومالت فى نومتها إلى جانبها ، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة ، فرأت آثار رأسه عليها واضحا ، فاستل من عينيها منتهى العطف والحنان ، وأدنت رأسها منه ولثمته ، وقد تمتمت بفرح : ما أجمل كل شىء .. وما أسعدنى بكل شىء ..

ثم جلست فى فراشها هنيهة وغادرته — كما كانت تغادره كل صباح — نشطة مرحة كملحة بارعة فى نفس عامرة بالفكاهة ، واستحمت بالماء البارد ، وتعطرت بماء الزهر ، وارتدت ثيابها المبخرة ثم عادت إلى مائدة الطعام ، وتناولت إفطارها المكون من بيض وفطير ، وشربت كوبا من اللبن الحليب ، وكأسا من الجعة ..

واستقلت سفينتها إلى آبو ، وقصدت إلى معبد الرب سوتيس ، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع ، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل ، وطافت بأرجائه ، وتبركت بجدرانه وعمده ذات النقوش المقدسة ، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها ، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى ، وسألتها أن تغسلها بالزيت

المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها ، وترحض قلبها من الغى والعمى . وقد أحست ، وهى بين يدى الكاهنات المطهرات ، أنها تودع بلا رحمة قبر الفناء جسد رادوبيس الغانية اللعوب ، التى كانت تعبث بالرجال وتهلك النفوس ، وترقص على أشلاء الضحايا ، وذوب القلوب ، وأن دما جديدا يجرى فى عروقها ، فينبض فى قلبها وحواسها الطمأنينة ، والسعادة ، والطهر ، ثم صلت صلاة حارة ، جاثية على ركبتيها مغرورقة العينين ، وضرعت فى الختام إلى الرب أن يبارك حبها وحياتها الجديدة . وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنها طائر يرف بجناحيه فى سماء صافية ، واستقبلتها شيث فرحة متهللة ، تكاد تطير من الفرح ، وقالت :

— مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتى . ألا تعلمين من أتى قصرنا فى غيبتك ..

فخفق قلبها باضطراب فرح ، وصاحت :

— من ؟..

فقالت الجارية :

— أتى رجال من أمهر الصناع بمصر مبعوثين من قبل فرعون ، فشاهدوا الحجرات والأرواق والردهات ، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيدا لصنع أثاث جديد .

— حقا ..

— نعم يا مولاتى ، وسيغدو هذا القصر عما قليل أعجوبة الزمان ، فيالها من صفقة رابحة !..

وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة ، ثم خطر لها خاطر ، فقطبت جبينها وسألتها :

— أى صفقة تعنين يا شيث ؟

فغمزت المرأة بعينيها ، وقالت :

— صفقة الغرام الجديد ، وحق الأرباب إن مولاى ليزن أمة من الأغنياء ، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب ..

وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار ، وصاحت بها :

— خسئت يا امرأة .. أنا لا أتجر الآن ..

— ويل لى .. لو كانت لدى شجاعة يا مولاتى لسألتك عما تفعلين إذا ؟

فتنهدت رادوبيس وقالت :

— أمسكى عن هذرك ، ألا ترين أنى أجد فى الأمر جدا ؟.

فحملقت الجارية فى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم قالت :

— باركتك الآلهة يا مولاتى .. إنى حائرة وأسائل نفسى : لماذا تجد مولاتى جدا ؟..

فتنهدت رادوبيس مرة أخرى ، واستلقت على الديوان الوثير ، وقالت بصوت خافت :

— أحببت يا شيث ..

فضربت الجارية على صدرها بيدها ، وقالت بفزع ودهشة :

— أحببت يا مولاتى !..

— نعم أحببت ، مالك تدهشين ؟

— معذرة يا مولاتى ، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى لك على لسان من قبل .. فكيف جاء ؟

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة :

— ما الداعى إلى العجب ؟ امرأة تحب ، يا لها من حقيقة مبتذلة .

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها ، وقالت :

— أما هنا فلا ، عهدى به حصنا منيعا ، فكيف أخذ ؟.. ألا بالله قولى لى ..

وبدت فى عينيها الأحلام ، وبعثت الذكرى فى نفسها شعورا فياضا ، فقالت بصوت كالهمس :

ــ أحببت يا شيث ، والحب شيء عجيب ، فى أى دقيقة من الزمان طرق الحب قلبى ؟ كيف تسلل إلى أعماق نفسى ؟ لا علم لى بذلك ، وإنه ليحيرنى حيرة شديدة ، ولكننى عرفت الحقيقة بقلبى ، لقد خفق بشدة وعنف ، خفق لرؤية وجهه ، وخفق لسماع صوته ، وما كان عهدى به أن يخفق لشيء من هذا ، فوسوس لى صوت خفى بأن هذا الرجل صاحب هذا القلب دون منازع ، فغمرنى إحساس قوى عنيف عذب أليم ، وشعرت شعورا وثابا بأنه ينبغى أن يكون لى كقلبى ، وأن أكون له كنفسه ، ولم أعد أتصور أن تطيب حياة ، ويلذ وجود بغير هذا الامتزاج ..

فقالت شيث لاهثة :

ــ يا للحيرة يا مولاتى ..

ــ نعم يا شيث ، طالما تمتعت بالحرية المطلقة ، كنت أتخذ مجلسى على ربوة عالية وأسرح ناظرى فى عالم واسع غريب ، وأسامر عشرات الرجال ، وأتذوق متع الأحاديث ، وأتملى آيات الفن ، وألهو بالمجون والغناء ، ولكن كان يرين على صدرى سأم لا شفاء له ، وتغشى نفسى وحشة لا طمأنينة معها . الآن يا شيث ضاقت أمالى ، وانحصرت فى رجل واحد هو مولاى ، وهو دنياى . ولكن دبت حياة دافقة طردت من طريق حياتى السأم والوحشة ، وأفاضت عليه نورا وبهجة ، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة ، ووجدتها فى رجلى الحبيب .. أرأيت ما هو الحب يا شيث ؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة ، وقالت :

ــ يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى .. ولعله أعذب من الحياة نفسها ! وإنى أسائل نفسى عما أحس به من الحب ، إن الحب كالجوع ، والرجل كالطعام .. وإنى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة .. وحسبى هذا ..

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر ، ثم قامت واقفة ، وذهبت

إلى شرفة تطل على الحديقة ، وأمرت شيث أن تأتى لها بقيثارة ، فأحست برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء ، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا ..

وغابت شيث برهة ، ثم عادت حاملة القيثارة ، وأسلمتها بين يدى مولاتها ، وهى تقول :

— هل يزعجك أن تؤجلى اللهو إلى حين ؟

فسألتها ببساطة ، وهى تتناول القيثارة :

— ولم ؟..

طلب إلى أحد العبيد أن أخبرك بأن إنسانا يطلب الإذن بمقابلتك .

فلاح الاستياء على وجهها ، وسألها بجفاء :

— ألا يعرف من هو ؟..

— يقول إنه .. يزعم أنه مرسل من قبل الرسام هنفر .

وتذكرت ما قاله لها الرسام هنفر أول أمس عن تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجرة الصيفية ، فقالت لشيث :

— إيتى به إلى ..

وأحست بمضايقة واستياء ، وأمسكت القيثارة بحدة ، ولعبت أناملها بالأوتار فى خفة وغضب ، لعبا لا وحدة بين أجزائه .

وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر ، وقد أحنى رأسه فى إجلال ، وقال بصوت رقيق :

— أسعد الرب يومك يا سيدتى ..

فوضعت القيثارة جانبا ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة ؛ كان غلاما معتدل القامة ، نحيف القد ، أسمر الوجه ، حسن القسمات ، واسع العينين إلى درجة تلفت النظر ، تلوح فيهما آى الصفاء والسذاجة . فأخذتها حداثة سنه ، وصفاء عينيه ، وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقا أن يتم عمل المثال العظيم هنفر ؟ وقد أحست بارتياح إلى رؤيته ، أذهب عنها موجة الاستياء التى

اجتاحتها ، وسألته :

ـــ أأنت تلميذ المثال هنفر الذى اختارك لزخرفة الحجرة الصيفية ؟.

فقال الشاب بارتباك ظاهر ، وكان بصره يتردد بين وجه رادوبيس وأرض الشرفة :

ـــ نعم يا سيدتى .

ـــ حسن ، وما اسمك ؟..

ـــ بنامون .. بنامون بن بسار .

ـــ بنامون .. كم تبلغ من العمر يا بنامون ، فإنى أراك صغيرا ؟.

فتورد خداه وقال :

ـــ أبلغ الثامنة عشرة فى مسرى القادم .

ـــ أراك تبالغ فى التقدير .

فقال الشاب بإخلاص :

ـــ كلا يا سيدتى إن ما أقول هو الحق .

ـــ يا لك من طفل يا بنامون ..

واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا ، وكأنه خشى أن تعرض عنه لحداثة سنه . وقرأت مخاوفه ، فقالت مبتسمة :

ـــ لا تقلق فإنى أعلم أن هبة المثال فى يده لا فى عمره .

فقال بحماس :

ـــ لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .

ـــ هل سبق أن قمت بعمل هام ؟

ـــ نعم يا سيدتى ، زخرفت جانبا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم بيجة .

فقالت :

ـــ أنت طفل نابغ يا بنامون .

فتورد خداه ، ولمعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة ، ونادت رادوبيس شيث ، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفية .. وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :

ـــ ينبغى أن تفرغى لى كل يوم .. فى أى وقت تشائين .

فقالت :

ـــ لقد ألفت نفسى أمثال هذه الواجبات .. هل تنحت لى صورة كاملة ؟

ـــ أو نصفية ، وربما اكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأحنى رأسه ، وسار على أثر شيث ، وذكرت المرأة المثال هنفر ، وقالت لنفسها فى سخرية : هل كان يدور له بخلد ، أن القصر الذى سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله ؟..

وأحست بارتياح إلى الأثر الذى تركه الشاب الساذج فى نفسها ، ولعله أثار فى قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل ، هى عاطفة الأمومة .. وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذى لم ينج منه إنسان ، ودعت الرب مخلصة أن يحفظ له طمأنينته وصفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعى الألم واليأس ..

بنـــامـون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى إلى الحجرة الصيفية بالحديقة ، ووجدت بنامون جالسا إلى منضدة ، باسطا على سطحها ورقة من البردى ، يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو عليه آى الانهمـاك والتفـكير . ولما أحس بوجودها ، وضع قلمه وقام واقفا وأحنى رأسه لها ، فحيته بابتسامة وقالت :

ـــ سأجعل لك هذه الساعة من الصباح ، فهى التى أملكها من يومى الطويل ..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول :

ـــ شكرا يا سيدتى ، ولكننا لن نبدأ اليوم ، لأننى ما أزال أضع الفكرة العامة للزخرف .

فقالت :

ـــ آه لقد غررت بى يا غلام ..

ـــ حاشاى يا سيدتى .. بل عنت لى فكرة رائعة .

فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية ، وقالت :

ـــ ترى هل يستطيع حقا هذا الرأس الصغير ، أن يبدع فكرة رائعة ؟..

فتخضب وجهه بالاحمرار ، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن :

ـــ سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك .

ـــ يا للهول .. أخشى أن يأتى بشعا مخيفا ..

ـــ سيبدو جميلا كما هو .

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة ، فحدجته بنظرة فاحصة ، فسارع الارتباك إليه ، وتحيرت عيناه الصافيتان ، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتى

استقر بصرها على البركة خلل الباب الشرقى للحجرة .. يا له من شاب رقيق كالعذراء الساذجة ، إنه يهيج فى صدرها حنانا غريبا ، ويوقظ الأمومة النائمة فى سراديب نفسها ، والتفتت إليه ، فرأته منكبا على عمله ، ولكنه لم يكن متفرغا له ، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك مورد الخدين ، أليس ينبغى أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها ؟ ، ولكنها أحست برغبة فى التحدث معه ، فأطاعت رغبتها وسألته :

ـــ أمن أهل الجنوب أنت ؟

فرفع الشاب رأسه ، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج . وقال :

ـــ أنا من أمبوس يا سيدتى .

ـــ أمبوس ؟.. أنت من شمال الجنوب إذا ، ولكن ما الذى جمع بينك وبين المثال هنفر ، وهو من أهل بلاق ؟

ـــ كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى بالفن أرسلنى إليه ووصاه بى .

ـــ وهل والدك من طائفة الفنانين ؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال :

ـــ كلا .. كان والدى كبير أطباء أمبوس ، وكان نابغة فى الكيمياء والتحنيط ، وقد تعددت اكتشافاته فى طرائق التحنيط وتركيبات السموم ..

ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

ـــ ولماذا كان يصنع السموم ؟..

فقال الشاب بلهجة حزينة :

ـــ كان يستعملها كأدوية ناجعة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها وا أسفاه كانت السبب فى القضاء على حياته .

فسألته باهتمام شديد :

— كيف كان ذلك يا بنامون ؟

— أذكر يا سيدتى أن والدى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله : « إنه أفتك السموم جميعا ، وأنه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة » وسماه لذلك السم السعيد ، وفى ليلة أسيفة قضى الليل كله فى معمله يشتغل بلا انقطاع ، وفى الصباح وجد ممددا على مقعده فاقد الروح ، وإلى جانبه قارورة سم من ذاك السم الفاتك مفضوضة السداد ..

— يا للغرابة .. هل أنتحر ؟.

— من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك ، ولكن ما الذى دفعه إلى الهلاك ؟.. لقد دفن سره معه ، واعتقدنا جميعا أن روحا شيطانيا تلبسه ، فأضلته الحكمة فأتى فعلته فى حالة إعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعا ..

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره . فأسفت رادوبيس على إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته :

— وهل أمك على قيد الحياة ؟

— نعم يا سيدتى ، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس ؛ أما معمل والدى فلم يلج بابه إنسان منذ تلك الليلة ..

وعادت المرأة ، وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب وفى سمومه المودعة المعمل المغلق ..

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادئ المنطوى على الحب والطمأنينة ؛ وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب للحب ساعة كل صباح . على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق من الطيف . ومضت الأيام وهى مغرقة فى الهوى وهو منكب على عمله ، وحياة الفن العالية تدب فى جدران الحجرة الصيفية .

وكان يسرها أن ترقب يده وهى تبث فى الحجرة روحا من جمالها الرائع . وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة ، ووقر فى نفسها أنه سيخلف المثال هنفر فى مستقبل

قريب . وقد سألته يوما وهى تهم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة :

ـــ ألا يلحقك التعب أو السأم ؟

فابتسم الغلام بفخار وقال :

ـــ هيهات ..

ـــ كأنك تندفع بقوة شيطان ..

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة ، وقال بهدوء وسذاجة :

ـــ بل بقوة الحب ..

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التى توقظ فى قلبها أشهى الذكريات ، وتنادى إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال ، ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم فى نفسها .

فاستدرك قائلا :

ـــ ألا تعلمين يا سيدتى أن الفن هوى ؟

ـــ حقا ؟!.

فأشار إلى أعلى جبينها الذى وضح رسمه على الجدران ، وقال :

ـــ هاك نفسى خالصة ..

وكانت قد ملكت عواطفها ، فقالت بسنخرية :

ـــ يا لها من حجر أصم .

ـــ كانت حجرا قبل أن تلمسها يداى ، أما اليوم فهى نفسى .

فضحكت قائلة :

ـــ يا لك من مغرق فى حنب نفسه ..

هكذا قالت وهى توليه ظهرها : ولكن وضح على أثر ذاك اليوم أن نفسه ليست الشىء الوحيد الذى يحبه ، وكانت تسير فى الحديقة على غير هدى كخاطر حائر فى دماغ حالم سعيد ، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية ، وساقها ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية فى غابة الجميز ، وإرسال النظر خلل نافذة

الحجرة وكان وجهها الآخذ فى الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنان الشاب فى أسفل الجدار، وكانت تظنه ينهمك فى عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مشتبكتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق فى صلاة، إلا أن رأسه كان متجها إلى ما تم نحته من رأسها وجبينها..

ودفعتها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مذعورة ، ورأته يقوم واقفا كأنه ينفتل من صلاته ، ورأته يمسح عينيه بطرف كمه الواسع .. فخفق قلبها ، ولبثت برهة لا تبدى حراكا ، والسكون مطبق من حولها . لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرفة البط السابح على سطح الماء أو طنينه ، ثم التفتت إلى الوراء وانحدرت مسرعة فى طريقها إلى القصر ..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمة به ، وكانت تطالع معناه فى عينيه الصافيتين كلما رنا بهما إليها ، وما كانت تستطيع دفع الشر ، فهل تباعد بينه وبينها ؟. هل تغلق باب القصر فى وجهه بأية علة تعتل بها عليه .. لكنها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وباتت فى حيرة من أمرها .

على أن حيرتها لم تطل بها ، ولم يكن شىء فى الوجود بقادر على أن يستبد بوجدانها أكثر من ساعة عابرة، لأن عواطفها وإحساساتها جميعا كانت نهب الحب، وملك يدى حبيب طموح لا يقنع من الحب بشىء .. كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرا قصره ودنياه، غير آسف ولا مردد ، فكانا يفران معا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم فى أيامهما تلك أن تكتشف رادوبيس فى الضحى بعد توديعه لها، أنها لم تسأله أعينيها يؤثر بالشوق أم شفتيها، أو أن يذكر وهو فى طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكر راجعا لينفى عن حياته أتفه أسباب الهموم.

كانت أياما لا نظير لها فى الأيام .

خنـوم حتب

وكان الزمن الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة ، يتجهم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب . كان الرجل يقبع فى دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين ، ويستمع إلى ما يقال بآذان مرهفة وقلب حزين ، ثم يستوصى بالصبر ما أمكن الصبر .

وكان الأمر الذى أصدره الملك بنزع أراضى المعابد ينغص عليه صفو حياته ، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية ، لأن جمهور الكهنة قابلوه بفزع وألم ، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب ..

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل ، وأنه نادرا ما يحظى بمقابلته والتحدث إليه فى أمور المملكة . وذاع على أثر ذلك أن فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة . وأنه يبيت لياليه فى قصرها . ثم شوهد الصناع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات ، ورئيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمين الجواهر . وتهامس الكبراء بأن قصر رادوبيس يتحول إلى مثوى من الذهب والفضة والمرجان ، وأن أركانه تشهد هوى جامحا يتقاضى مصر أموالا لا تعد ولا تحصى ..

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين ، وقد نفد صبره ، وضاق بجموده ، ففكر فى الأمر طويلا ، وعزم على أن يبذل ما فى وسعه ليحول الأمور عن السبيل التى تندفع فيه ؛ فأرسل رسولا من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاه فيها إلى موافاته بدار الحكومة . وسارع كبير الحجاب إلى مقابلته ، وصافحه الوزير ، وقال له :

— إنى أشكرك أيها المبجل سوفخاتب على تلبيتك لرجائى .

فأحنى كبير الحجاب رأسه وقال :

— إنى لا أتوانى عن القيام بواجبى المقدس فى خدمة مولاى .

وجلس الرجلان وجها لوجه ، وكان خنوم حتب صلب الإرادة حديدى الأعصاب ، فظل وجهه هادئا رغم ما يجيش بصدره من الأحزان . وقد استمع إلى قول كبير الحجاب فى سكون ، ثم قال :

— أيها المبجل سوفخاتب ، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص .

— هذا حق يا صاحب القداسة .

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير ، فقال :

— ولكن ضميرى لا يرتاح إلى سير الأمور فى هذه الأيام ، وبت أتعثر بالمتاعب والمشكلات . وقد رأيت — وأحسبنى فى رأيى من الصادقين — أن مقابلة بينى وبينك لا شك تأتى بخير كثير .

فقال سوفخاتب :

— إنه ليسعدنى وحق الأرباب أن تصدق فى فراستك يا صاحب القداسة .

فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بلهجة تنم على الحكمة :

— يجدر بنا أن نستوصى بالصراحة . فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والإخلاص .

فأمن سوفخاتب على قوله قائلا :

— صدق فيلسوفنا قاقمنا .

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره . ثم قال بصوت نم على الحزن :

— يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك فى هذه الأيام .

وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم الصمت ، فاستطرد قائلا :

— وأنت تعلم أيها المبجل أنى كثيرا ما أطلب تحديد وقت مقابلته ، فيقال لى إن

ذاته المعبودة خارج القصر .

فبادره سوفخاتب قائلا :

ـــ ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته .

فقال الوزير :

ـــ ما قصدت إلى هذا أيها المبجل ، ولكنى أعتقد أن حقى كوزير يخول لى المثول بين يدى جلالته بين آونة وأخرى ، لأقوم بواجباتى على الوجه الكامل .

ـــ معذرة يا صاحب القداسة ، ولكنك تحظى بالمثول بين يدى فرعون .

ـــ نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدنى لا أدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة .

فحدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

ـــ لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

ـــ هو ذلك يا سيدى .

فقال سوفخاتب بسرعة :

ـــ إن فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع . لأن جلالته قال فيه كلمته الأخيرة .

ـــ إن السياسة لا تعرف كلمة أخيرة .

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة :

ـــ هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه .

ـــ أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا ؟

واستاء سوفخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه ، بعد أن أعلن له أباءه ، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك :

ـــ سأقف عند كلمة مولاى لا أتعداها .

ـــ إن أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة .

واشتد استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول ، وثارت كرامته ثورة مكتومة ، فقال بشدة :

— إنى أعرف واجبى يا صاحب القداسة ، ولكننى لا أسأل عنه إلا أمام ضميرى .

فتنهد خنوم حتب يائسا ، ثم قال فى هدوء وتسليم :

— إن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل ، وما داخلنى شك قط فى إخلاصك أو حكمتك ، ولعل هذا ما دعانى إلى الاسترشاد برأيك . أما وإنك ترى أن هذا لا يتفق وإخلاصك فلا يسعنى إلا العدول عنك آسفا ، وليس لدى الآن لى رجاء واحد .

فقال سوفخاتب :

— تفضل يا صاحب القداسة .

— إنى أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة الملكة ، رجائى بالتشرف بين يديها اليوم .

وأخذ سوفخاتب ، ونظر إلى محدثه نظرة دالة على الدهشة ، لأنه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنه لم يكن متوقعه ، فاستولى الارتباك على الحاجب ، أما خنوم حتب فقال بلهجة دلت على العزم :

— إنى أقدم هذا الرجاء بصفتى رئيس وزراء المملكة المصرية .

فقال سوفخاتب بقلق :

— ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علما برغبتك ؟

— كلا أيها المبجل ، إنى أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التى تعترض سبيلى ، فلا تضيع فرصة ذهبية ، عسى أن أخدم بها مليكى ووطنى .

فلم يسع سوفخاتب إلا أن يقول :

— سأرفع رجاءك إلى جلالتها فى الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده للمصافحة :

— سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر وهو يودعه :

— كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه بشدة ، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع الحجرة ويعمل فكره . وكان لا يشك فى إخلاص سوفخاتب ، ولكنه كان قليل الثقة فى شجاعته وعزيمته . وقد دعاه وهو يائس منه ، ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلقا : هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها ! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته ؟. إن الملكة لا يستهان بها ، وعسى أن تحل العقدة المستحكمة بذكائها ، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك . ولا شك أن الملكة تدرك سوء تصرف الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهى ملكة مشهود لها بالفطنة ، وهى زوجة تشارك الزوجات أفراحهن وأحزانهن . أليس من المحزن أن تنزع أملاك المعابد ليبذل ريعها وخيصا تحت أقدام راقصة ؟

إن الذهب يتدفق إلى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه ، ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار فى صنع أثاثه وحلى ربته وأثوابها . وأين .. أين فرعون .. هجر زوجه وحريمه ووزراءه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة !

وتنهد الرجل فى حزن عميق ، وتمتم قائلا :

— ما ينبغى لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو ..

وراح فى تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، إذ دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن . وانتظر الرجل فى لهفة ، وقد اضطربت شفتاه فى تلك اللحظة الفاصلة على قوة إرادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ، وأحنى رأسه محييا ، وقال باقتضاب :

— إن حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة .

وحمل من فوره إضمامة الالتماسات ، وذهب إلى عجلته التى طارت به إلى القصر ، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول بهذه السرعة ، فلا شك أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من الآلام فى وحدتها الموحشة ، ولا شك أنها تتصبر على الإهانة والحرمان قابعة فى سياج قاس من الكبرياء والصمت ، إنه يحس أنها من رأيه ، وأنها ترى الأمور بالعين التى يراها الكهنة والعقلاء جميعا . وعلى أية حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر : وقصد توا إلى جناح الملكة ، ولم يلبث أن دعى إلى مقابلة جلالتها فى بهو استقبالها الرسمى . وأدخل البهو فاتجه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها الملكى ، وقال بإجلاء عميق :

ـ السلام على مولاتى نور الشمس وبهاء القمر .

فقالت الملكة بصوت هادئ :

ـ السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .

واستقامت قامة الوزير ، وإن ظل رأسه منكسا ، وقال بخشوع :

ـ إن عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك العالية ، على تفضلك الكريم باستقباله .

فقالت الملكةُ بصوتها المتزن النبرات :

ـ إنى أعتقد أنك لا ترجو مقابلتى إلا لأمر خطير . فلم أتوان عن استقبالك .

ـ تعالت حكمة مولاتى ، فالأمر جد خطير ، وما هو إلا صميم السياسة العليا .

وانتظرت الملكة صامتة ، فاستجمع الرجل قواه الذاتية ، وقال :

ـ إنى يا صاحبة الجلالة اصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت أخشى ألا أقوم بواجبى بما يرضى ضميرى ومولاى فرعون .

وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادئ نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر

كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على الاسترسال ، وأدركت الملكة معنى تردده فقالت :

— تكلم أيها الوزير فإنى مصغية إليك .

فقال خنوم حتب :

— اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكى بنزع أكثر أملاك المعابد ، فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون ، فهم يعلمون أن أراضى المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفا ، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطا .

ولاذ الوزير بالصمت هنيهة ، ثم استدرك قائلا :

— الكهنة يا مولاتى جنود الملك فى وقت السلم ، والسلمُ ينشد رجالا أصلب عودا من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء . وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبا لو دعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط ، ولكنهم ..

وتردد الرجل عن الكلام لحظة ، ثم استطرد بصوت أشد خفوتا :

— ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق فى غير هذه الوجوه ..

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح ، ولم يداخله شك فى أنها تفهم كل شىء وتعلم كل شىء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم ير بدا من أن يتقدم إليها بالالتماسات ، ثم قال :

— هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد ، وقد رفض مولاى الملك أن ينظر فيها ، فهل لمولاتى أن تطلع عليها ، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية ..

وقبلت الملكة الالتماسات ، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة ، ووقف فى

سكون منكس الرأس . ولم تعده الملكة بشيء ، وما طمع فى هذا قط ، ولكنه تفاءل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف ، فتراجع ويداه على عينيه .

وفى طريق العودة حادث الوزير نفسه : إن الملكة شديدة الحزن ، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة .

نيتـــو قريس

غيب الباب الوزير ، ووجدت الملكة نفسها وحيدة فى البهو الكبير ، فأسندت رأسها المتوج إلى ظهر العرش ، وأغلقت جفنيها ، وتنهدت تنهدا عميقا ، صعد أنفاسا حارة مكتوية بصورة الحزن والألم ، فلشد ما تتصبر وتتجلد ، حتى إن أدنى الناس إليها لا يدرى بألسنة اللهيب التى تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة .. وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبى الهول .

وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى فى الهاوية ، ويذهب فريسة لهواه الجامح ، ويهرع إلى تلك المرأة ـــ التى شاد بحسنها كل لسان ـــ لا يلوى على شىء . وأصابها سهم سام فى عزة نفسها وسويداء عواطفها ، ولكنها لم تبد حراكا ، ونشب فى صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب ، والملكة ذات التاج ، وأثبتت التجربة أنها كأبيها قوية الشكيمة ، فصهر التاج القلب ، وخنقت الكبرياء الحب ، فانطوت على نفسها الحزينة سجينة خلف الستائر . وهكذا خسرت المعركة ، وخرجت منها مهيضة الجناح ، وما رمت عن قوسها سهما واحدا .

وكان الذى يدعو إلى السخرية ، أنهما ما زالا يعدان عروسين . على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش ، فما عتم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال . ولم تكن تأبه لهن ، لأنهن جميعا لم يصرفنه عنها ، ولبثت ملكته وملكة فؤاده . إلى أن ظهرت فى أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف ، وملكت عواطفه وعقله جميعا ، واستأثرت به دون زوجه وحريمه

ورجاله المخلصين ، ولعب بها الأمل الخادع حينا ، ثم أسلمها إلى اليأس ، يأس مكفن بكبرياء فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت .

وكانت تأتى عليها أحايين يثب الجنون فى دمائها ، وتشع عينها نورا خاطفا ، فتهم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير ، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد : كيف يصح لنيتو قريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب ؟ فتبرد دماؤها ، ويتجمد الحزن فى قلبها كالسم الفاتك فى المعدة .

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلوبا غير قلبها تعانى الآلام بسبب تهور الملك ، وها هو ذا خنوم حتب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بينة : إنه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة ، ويؤمن بقولها المثين من صفوة الحكماء .. أفلا ينبغى أن تخرج عن صمتها ؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغى لها أن تعالج جنونه بحكمتها . وقد آلمها أن يرتقى الهمس إلى العرش المكين ، وأحست بأن واجبها يقضى عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة ، وهان عليها أن تدوس على كبريائها ، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة فى سبيلها السوى مستعينة بالأرباب .

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذى أملته عليها الحكمة والدواعى الباطنة ، إنهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت ، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة وإخلاص .

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكى ، وقطعت بقية نهارها فى التفكير والتأمل ، ونامت ليلها نوما متقطعا شديد العذاب ، وانتظرت الضحى على لهفة ، وهو الوقت الذى يصحو فيه الملك بعد سهر الليل .. ولم يداخلها التردد ، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح الملك ، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحراس ، فأدوا لها التحية ، وسألت واحدا منهم قائلة :

ـــ أين جلالة الملك .

فأجابها الرجل بإجلال قائلا :

— فى مثواه الخاص يا صاحبة الجلالة .

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه ، واجتازت بابها الكبير . وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعا ، حملت من آى البلهنية والفن ما لا تصدقه العيون . ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها ، وكانت مضت أيام عديدة على آخر لقاء ، فقام واقفا دهشا ، واستقبلها بابتسامة دلت على الارتباك ، وقال وهو يشير إليها بالجلوس :

— أسعدتك الآلهة يا نيتو قريس .. لو علمت برغبتك فى مقابلتى لبادرت إليك !

فجلست الملكة فى هدوء وهى تخاطب نفسها قائلة .. من أدراه أنى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة ! ثم وجهت إليه الخطاب قائلة :

— لا داعى لإزعاجك أيها الأخ ، فإنى لا أجد غضاضة فى الانتقال إليك ما دام الذى يحركنى واجب .

ولم يلق الملك إلى كلامها بالا ، لأنه كان يحس بحرج شديد ، وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها ، فقال :

— إنى خجل يا نيتو قريس .

وعجبت لطرقه هذا الموضوع ، وكان آلمها ألما خفيا أن تراه فى منتهى السعادة والصحة ، كالزهرة الناضرة ، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها :

— يهون لدى كل شىء إلا أن تخجل !

وكان أرق المس يهيجه ، ويرده من حال إلى حال ، فعض على شفته وقال :

— أيتها الأخت ، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية . وقد يهوى لإحداها فريسة .

وطعنها اعترافه بقسوة فى كبريائها وعواطفها ، فنسيت حلمها وقالت بصراحة :

— يحزننى وحق الرب ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية .

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم إلى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر . وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغضب الذى جاءت من أجله ، فندمت على قولها ، وقالت له برجاء :

ـــ أنت الذى سقتنى إلى هذا الحديث أيها الأخ ، وما لهذا جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أنى قصدت إليك لأحدثك فى شئون هامة تمس سياسة المملكة التى نجلس على عرشها سويا .

فكظم حنقه ، وسألها بلهجة كالهادئة :

ـــ ما حديثك أيتها الملكة ؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو صالح لغرضها ولكنها لم تر بدأ من الكلام ، فقالت باقتضاب :

ـــ أراضى المعابد .

فعبس وجه الملك . وقال بامتعاض شديد :

ـــ أتقولين أراضى المعابد ؟.. أنى أسميها أراضى الكهنة !

ـــ لتكن مشيئتك يا مولاى . فإن تغيير الاسم لا يغير من الأمر شيئا .

ـــ ألا تعلمين أنى أكره أن يعاد على هذا الاسم ؟

ـــ إنى أحاول ما لا يستطيعه غيرى ، وهدفى الخير والإصلاح .

فهز الملك منكبيه بامتعاض وقال :

ـــ وما الذى تريدين قوله أيتها الملكة ؟

فقالت بهدوء :

ـــ لقد دعوت خنوم ختب إلى مقابلتى إجابة لرجائه واستمعت ..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، وقال بغضب :

ـــ أهكذا فعل الرجل ؟

فقالت بارتياع :

ـــ نعم .. هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك ؟

فقال وكأنه يزأر :

ـــ بغير شك .. بغير شك .. إنه رجل عنيد ، ويأبى أن ينزل عند إرادتى ، وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها ، وأنه يتربص بى لعله ينجح فى الغائه مستعينا تارة بالرجاء ، وقد رفضت أن أصغى إليه ، وتارة يدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير .. إن الرجل الماكر يندفع كالأعمى فى طريق خصامى .

فهالها ظنه وقالت :

ـــ أنت تسىء الظن بالرجل ، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم الرجال إخلاصا للعرش ، وإنه حكيم يتوخى الوئام .. أليس من الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته فى ظل عطف أجدادنا ؟.

واحتدم الغيظ فى قلب الملك ، لأنه لم يكن يجد عذرا لإنسان ألا يصدع بأمره فى السر والعلانية ، ولا يحتمل بأية حال أن يرى إنسان غير ما يرى .

فقال ممتعضا بلهجة تشف عن السخرية المريرة :

ـــ أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة .

فقالت باستياء :

ـــ لم يتجه رأيى قط إلى نزع أملاك المعابد ، ولا أجد ضرورة لذلك .

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف :

ـــ أيسيئك أن تزداد ثروتنا ؟

كيف يقول هذا ، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال ؟.

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق ، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال :

ـــ يسىء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعها فى اللهو العابث .

فاشتد هياج الملك . وقال وهو يشير بيده مهددا :

— ويل للرجل الماكر .. إنه يغرى بالشقاق بيننا ؟

فقالت بتألم وحزن :

— إنك تصورنى لنفسك كطفلة غريرة .

— ويل له .. لقد طلب مقابلة الملكة ليحادث المرأة المبتترة فى ثوبها الملكى .

فصاحت به حزينة متألمة قائلة :

— مولاى !.

ولكنه استطرد يقول مدفوعا بغضبه الشيطانى :

— لقد جئت يا نيتو قريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة فى الوئام .

وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبريائها . فأظلمت عيناها ، ودوى النبض فى أذنيها ، وارتجفت أطرافها . ولبثت هنيهة لا تستطيع قولا . ثم قالت :

— أيها الملك ! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئا أجهله فيسعى به إلى ، وما دمت تظن هذا ، فاعلم بأنى ، أعلم ، كما يعلم الجميع ، أنك غارق فى أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر . فهل رأيتنى طوال هذه الفترة طاردتك . أو ضيقت عليك . أو توسلت إليك ؟.. واعلم أن الذى يريد أن يخاطب فى المرأة يرتد خائبا ، ولا يلقى أمامه سوى الملكة نيتو قريس ..

فاحتد قائلا بعناد :

— ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة .

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة ، وقامت واقفة يائسة ، وقالت بحنق شديد :

— أيها الملك .. ليس مما تعير به ملكة أن تغار على زوجها ، ولكن مما يعير به ملك حقا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمى راقصة ، ويعرض عرشه الطاهر لخوض الخائضين .

قالت الملكة ذلك ، وذهبت لا تلوى على شىء .

* * *

واستبد الغضب بالملك ، وأخرجه عن طوره وكان يعد خنوم حتب مسئولا

عن جميع متاعبه ، فاستدعى سوفخاتب وأمره دون أن يمهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره . وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائرا . وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل . وأدخل على الملك الغاضب الحانق ، ونطق الرجل بالتحية ــ التقليدية ، ولكن فرعون لم يكن يصغى إليه ، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلا :

ــ ألم آمرك أيها الوزير بألا تعود إلى مناقشة مسألة أراضى المعابد ؟.

وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التى يسمعها لأول مرة ، وأحس بآماله تنهار دفعة واحدة ، فقال يائسا :

ــ مولاى .. رأيت من واجبى أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوى طائفة من شعبكم الأمين .

فقال الملك بلهجة قاسية :

ــ بل أحببت أن تثير غبارا بينى وبين الملكة ، لتصيب تحت ستاره غرضك .

فرجع الرجل يديه بتوسل ، وأراد أن يتكلم فارتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين :

ــ مولاى .. مولاى ..

فقال الملك الغاضب المهتاج :

ــ يا خنوم حتب .. أنت تأبى الانصياع لأمرى ، فلن أمنحك ثقتى بعد اليوم .

ووجم الكاهن ، واستولى عليه الجمود ، ثم مال رأسه على صدره فى حزن ، وقال باستسلام :

ــ مولاى ، يحزننى وحق الأرباب جميعا أن أنسحب من ميدان خدمتكم المجيد ، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا من عبيدكم المخلصين ..

* * *

وأحس الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر ، وأرسل فى طلب سوفخاتب وطاهو ، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان ، فقال لهما الملك فى هدوء :

ــ انتهيت من خنوم حتب .

وساد السكون العميق ، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب ، أما طاهو فبقى جامدا .. وكان الملك يقلب ناظريه فى وجهيهما فسألهما :

ــ ما لكما لا تتكلمان ؟

فقال سوفخاتب :

ــ إنه لأمر خطير يا مولاى .

ــ أتراه خطيرا يا سوفخاتب !.. وأنت يا طاهو ؟

وكان طاهو جامدا ميت الإحساس ، لا رجع للحوادث فى قلبه ، ولكنه قال :

ــ إنه عمل يا مولاى من وحى القوة المعبودة .

فابتسم الملك ، وكان سوفخاتب يقلب الأمر على جميع وجوهه ، فقال :

ــ سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .

فهز فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :

ــ لا أظن أنه سيلقى بنفسه إلى التهلكة .

واستدرك وقد غير لهجته :

ــ والآن بماذا تشيران على فيمن يخلفه ؟

وساد الصمت مدة ، ومضى الرجلان يفكران .

وابتسم الملك قائلا :

ــ إنى أختار سوفخاتب فما رأيكما ؟

فقال طاهو بصدق :

ــ إن من اخترت يا مولاى لهو القوى الأمين .

أما سوفخاتب ، فبدا على وجهه الانزعاج وهم بالكلام ، ولكن سبقه فرعون قائلا :

ــ هل تتخلى عن مولاك وقت الحاجة إليك ؟

فقال سوفخاتب وهو يتنهد :

ــ ستجدنى يا مولاى من المخلصين .

الرئيس الجـديد

وأحس فرعون فى العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدى الرجل الذى يثق به ، وولى وجهه نحو المرأة التى استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففى جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس .

أما سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتجهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدماه دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحب ، ويولى كشحه الهموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم ، وقلوبهم تتبع كهنتهم فى كل مكان . وتلفت الوزير حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عونا ومشيرا ، وهما رجلان يختلفان فى أمور كثيرة . ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له . فلبى القائد نداءه ، ومد يده إليه ، وشاركه فى وحشته وجل متاعبه ، وكافحا معا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب ، وتتجمع فى أفقها السحب والزوابع . على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك ، كان مخلصا ينضح قلبه بالأمانة والوفاء ، حكيما تنجلى له حقائق الأمور ، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم ، فرأى الخطأ منذ البدء ، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى فى مداراته وتهوين عقباه . خشية غضب مولاه أو إيلامه ، وهكذا اطردت الأمور فى السبيل الذى شقه الغضب ..

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هام . قالوا إن خنوم حتب ارتحل بغتة إلى منف ، العاصمة الدينية ، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد . واحتارا فى السبب الذى من أجله رضى الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال ،

وتوقع سوفخاتب شرا ، ولم يشك فى أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال الكهنوت ، وجميعهم ساخطون لما حل بهم من ضنك ، ولعلمهم بأن الأموال التى ضن بها عليهم تبعثر تحت قدمى راقصة بيجة بغير حساب ، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن ، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب ، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه ..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة ، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرا فى أنحاء القطر ، بالتهانى الرسمية من الأقاليم ، أما الكهنة فقد انطووا على صمت رهيب ، حتى قال طاهو : « لقد بدأونا بالتحدى » .

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد ، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون إعادة النظر فى مسألة أراضى المعابد . فكان إجماعا خطير الشأن ، زاد من متاعب سوفخاتب .

وفى يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة ، وجاءه القائد يسعى ، فأشار الوزير إلى كرسى الوزارة ، وهو يتنهد ، وقال :

— يكاد هذا الكرسى أن يميد بى . .

فقال طاهو :

— إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسى .

فتنهد الرجل حزنا ، وقال :

— أغرقونى بسيل من الالتماسات .

فسأله القائد باهتمام :

— هل عرضتها على فرعون ؟

— كلا أيها القائد ، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاتحته فى هذا الموضوع ، وأنا لا أحظى بالمثول بين يديه إلا فى فترات متباعدة جدا .. إنى أشعر بالارتباك والوحدة .

وصمت الرجلان برهة ، وخلا كل منهما إلى أفكاره ، ثم هز سوفخاتب

رأسه متعجبا ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

— إنه للسحر بعينه .

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة ، وبغتة المعنى الذى يقصده الرجل ، فسرت فى جسده قشعريرة وامتقع لونه ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من حياته ، وسأله ببساطة كلفته جهدا جهيدا :

— أى سحر تعنى يا صاحب القداسة .

فقال سوفخاتب :

— رادوبيس ، أليست تنفث فى فرعون سحرا ، بلى وحق الأرباب ، إن ما بجلالته لسحرا مبينا ..

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم ، وخال أنه يسمع شيئا عجيبا يلمس بوقعه السحرى جميع الحواس والعواطف ، وكاد يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه ، فأصر على أسنانه بشدة وقال :

— يقول الناس إن الحب سحر ، والسحرة يقولون إن السحر حب .

فقال الوزير الحزين :

— بت أعتقد أن جمال رادوبيس سحر ملعون .

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال :

— ألم تتل الرقية التى مكنت لهذا السحر ؟

فأحس الرجل بلوم القائد وامتقع لونه ، وقال بسرعة كأنما يدفع تهمة :

— لم تكن أول امرأة ..

— ولكنها كانت رادوبيس !

— رجوت لمولاى سعادة .

— فقدمت له سحرا وا أسفاه !

— نعم أيها القائد ، إنى أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا .. ولكن ينبغى عمل شىء .

فقال طاهو وكان لا يزال يحس بمرارة :
ـــ هذا واجبك يا صاحب القداسة .
ـــ إنى أطلب مشورتك .
ـــ إن الإخلاص يبلغ غايته فى النصيحة الصادقة .
ـــ إن فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسألة الكهنة .
ـــ ألا تفضى برأيك إلى جلالة الملكة ؟
ـــ هذا سبيل أودى بخنوم حتب إلى التعرض إلى غضب جلالة الملك .
فلم يجد طاهو ما يقوله ، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت :
ـــ ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرة أخرى ، وانخلع قلبه فى صدره ، وكادت العواطف التى يبالغ فى كتمانها تنفجر ، وقال لنفسه : إن الشيخ لا يدرى ماذا يقول ، ويظن أن مولاه هو المسحور وحده .. ثم قال له :

ـــ لماذا لا تجتمع بها أنت ؟
فقال سوفخاتب :
ـــ لعلك أقدر منى على التفاهم معها ..
فقال طاهو ببرود :
ـــ أخشى أن تجد على رادوبيس ، وتسىء بى الظن فتشوه مسعاى لدى فرعون .. كلا يا صاحب القداسة ..

وتهيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة .

ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأن أعصابه ثارت ، وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاعبرار ، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوى على شىء ، تاركا وراءه سوفخاتب غارقا فى لجة عميقة من الأفكار والأحزان .

الملكتـان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذى تثقل رأسه الهموم .

كانت الملكة تقبع فى جناحها ، تنطوى على حزن دفين ، وألم بارح ، ويأس محروم من الشكوى ، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير ، وتشاهد الأمور التى تقع فى الوادى بعينين حزينتين ، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها ، أو ملكة يتقلقل بها عرشها ، وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له اتصال ، ما دام الملك يغرق فى هواه ، وما دامت هى تلوذ بصمت الكبرياء .

وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا ، وأن الحب أنساه كل شىء حتى تركزت السلطة فى يد سوفخاتب . ولم يكن يداخلها شك فى إخلاص الوزير للعرش ، ولكنها غضبت من استهتار الملك وذهوله ، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها الأمر ، ولم تتردد عن غايتها ، فدعت يوما سوفخاتب وطلبت إليه أن يرجع إليها فى الشئون التى تحتاج إلى رأى الملك . وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشىء ، وأرضت معه الوزير وهى لا تدرى ، الذى تنفس الصعداء ، وأحس بأن حملا ثقيلا رفع عن صدره الضعيف .

وعلى أثر اتصال الوزير بها ، علمت بالالتماسات التى بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادى ، وقرأتها بصبر وجلد ، فقرأت الكلمة التى أجمع عليها رأى الصفوة من أفذاذ المملكة ، وأحست بالخطورة المستترة خلف أسطرها المتزنة الحازمة .. وتساءلت فى حيرة وألم ، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أن فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط ؟.. فالكهنة قوة عظيمة ، وهم يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه ، وهو يستمع إليهم فى المعابد والمدارس والجامعات ، ويطمئن إلى أخلاقهم وتعاليمهم اطمئنانه إلى مثله العليا .. فكيف

تطرد الأمور إذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون ؟.. وقنطوا من إصلاح الأمور التى لم يروها قط تسير فى طريقها التى تسير فيه فى أى عهد من العهود المجيدة الفخور التى طواها الماضى الخالد ؟

وما من شك فى أن الأمور تتعقد تعقيدا خطيرا ، ويندفع نهر الشقاق ، فيفرق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيجة ، وبين شعبه المخلص الأمين ، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغنى عنه إخلاصه ولا حكمته شيئا ..

وأحست الملكة بأنه ينبغى عمل شىء ، وأن ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمتاعب ، فينبغى أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلص الذى يعتوره ، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله .. فما عسى أن تصنع ؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحق ، ولكنها اليوم لا يعاودها إليه أمل ، ولم تنس بعد ما وجه إلى كبريائها من طعنة نجلاء ، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة .. وفتشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها . لكن ما غرضها ؟.. لقد فكرت فى ذلك مليا ، ثم قالت لنفسها : « غاية ما آمل أن أفوز به ، أن يرد فرعون إلى الكهنة الأراضى التى انتزعها منهم .. » . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟.. إن الملك غضوب ذو كبرياء عنيف ، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان ، ولقد أمر بنزع الأراضى فى ساعة غضب خطير ، ولكن ما من شك فى أن أشياء غير الغضب تدعوه إلى احتفاظ بالأراضى فى حوزته ، ومن يعرف قصر بيجة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذة الأشياء ، لقد سموه بحق قصر بيجة الذهبى ، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب ، فلو سدت هذه الفوهة التى تبتلع أموال الملك ، لربما هان عليه أن يفكر فى رد أراضى المعابد إلى الكهنة . ولم تكن تطمع فى صرف الملك عن غانية بيجة ، ولا فكرت فى ذلك ، ولكنها كانت ترجو لإسرافه حدا . وتنهدت عند ذلك وقالت لنفسها : الآن وضح غرضى ، فينبغى أن نجد وسيلة لإقناع الملك ، بالتحول عن الإسراف الشديد ، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأراضى إلى أصحابها ، ولكن كيف نقنع

الملك ؟.. لقد أسقطته من حسابها . ولكنها تجده وراء كل حساب .. لقد فشلت فى إقناعه ، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظا ، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه ، وقد أفلت منها هذا السؤال : « من القادر على أقناع الملك ؟ ».فسرت فى جسدها قشعريرة أليمة ، إذ حضرها الجواب سريعا ، ولكنه كان مروعا أليما ، ولم تكن تجهله . ولكنه كان من الحقائق التى يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة ، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكم فى الملك ، المسير له ، غريمتها راقصة بيجة ، التى حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد .. هذه هى الحقيقة المؤلمة تسأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال ..

وكانت الملكة امرأة حزينة ، ولكنها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق . وكانت تتناسى أنها امرأة ، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك ، فظل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التى خطفته من بين يديها . ولكنها لم تتناس قط أنها الملكة ، ولم تغفل لحظة عن واجباتها ، وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به فى مرتقاه فوق منال الهمس والتذمر ، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب ..؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى ؟. إن أفكارنا مسوقة دائما للطواف بمن نحب ومن نكره ، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح . ولقد أحست من بادئ الأمر برغبة فى رؤية رادوبيس التى ترامت إليها أخبارها ، ولكن ما معنى هذا ؟.. أتذهب إليها لتحدثها فى شئون مصر ؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التى تعرض نفسها فى سوق الهوى ، وتخاطبها باسم حبها المزعوم للملك ، أن ترده عن الإسراف وتعيده إلى واجبه ؟.. يا لها من صورة بشعة !..

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها ، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل .. فلم تعد تستطيع صبرا ، وأقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها إلى عمل شيء ما ، وإلى بذل محاولة أخرى .. وتساءلت

فى حيرتها : « أأذهب حقا إلى هذه المرأة ، وألفتها إلى واجبها ، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التى يندفع إليها .. » وأسلمها تساؤلهما هذا إلى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هويا بها إلى الهوس والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها . وما كانت تزداد إلا تصميما ، كانت كسيل يندفع فى منحدر لا يستطيع عنه حولا . ولكنه يندفع مضطربا مزبدا كاسرا .. فقالت فى نهاية المعركة الناشبة : « سأذهب ... » .

* * *

وفى صباح اليوم الثانى لبثت تنتظر عودة الملك . واستقبلت الضحى فى سفينة ملكية ، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة ، الأبيض الذهبى . وكانت تشملها حالة ذهول محزن ، ولم تكن ارتدت ثوبا ملكيا ، فأحست لذلك بسخط واستياء ، ورست السفينة على سلم القصر ، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق ، فقالت له : إنها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر ، فتقدمها إلى بهو الاستقبال ، وكان الجو باردا ، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرت كأذرع محنطة .. وجلست فى البهو تنتظر وحدها . وكانت تشعر بغرابة وحيرة ، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنه يصح أن تخفض الملكة من كبريائها فى سبيل واجبها الأسمى ، ولكنها أحست بالانتظار يطول وتساءلت قلقة : « هل تدعها تنتظر طويلا كما تفعل مع الرجال » . ولحقها جزع مؤلم ، وندمت على تسرعها بالحضور إلى قصر غريمتها ..

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب ، فرفعت رأسها المثقل ، فوقعت عيناها لأول مرة على وجه رادوبيس . كانت رادوبيس بغير ريب . وقد أحست بلذعة ألم ويأس ، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهلوك . وبغتت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد .

وسلمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة ، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقى :

ـــ نزلت قصرك .. .

فردت الضيفة بصوت بالغ فى جلاله قائلة باقتضاب :

ـــ شكرا ..

فابتسمت الغانية وقالت :

ـــ ليت ضيفتنا تؤذننا بشخصها الجليل .

وكان السؤال طبيعيا ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم تكن تتوقعه . ولم تجد بدا من إعلان نفسها ، وقالت بهدوء :

ـــ أنا الملكة ..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها فى نفسها ، فشاهدت ابتسامة تغيض ، وعينيها تلمعان دهشة ، وصدرها يمتلئ ويتصلب كالأفعى إذا هوجمت .. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو ، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريمتها ، وأحست بدمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعا ، وشعرت بالكراهية والبغضاء ، وتواجهتا كغريمتين تتحفزان للقتال .. واستولت عليها حالة مريرة ملوثة بالغضب والحقد . ونسيت الملكة إلى حين كل شيء إلا أنها بإزاء المرأة التى سلبتها سعادتها ، ونسيت رادوبيس كل شيء إلا أنها أمام المرأة التى تقاسم حبيبها اسمه وعرشه ..

وتبودل الحديث بينهما بادئ الأمر فى ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد فجرى مجرى عنيفا محزنا ، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريمتها ، فقالت باستياء :

ـــ ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحيين الملكة ؟..

فجمدت رادوبيس فى مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد ، وكادت تنفجر لتنفس عن صدرها الكظيم ، ولكنها ملكت أعصابها ، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت رأسها وهى جالسة ، وقد أسندت رأسها إلى المقعد فى تراخ واستهانة ، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية :

ـــ إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصرى فى التاريخ ..

والتهب وجه الملكة غضبا ، فقالت بانفعال :

ـــ لم تعدى الحقيقة ، فسيذكر قصرك هذه المرة ذكرا جميلا لا كما تعود أن يذكره الناس .

فنظرت إليها بسخرية تستر غيظا وحنقا ، وقالت :

ـــ ألا سحقا للناس .. أيذكرون بالسوء قصرا يجعله مولاهم مرتعا لقلبه وهواه !!..

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد ، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنى ، وقالت :

ـــ ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب ..

ـــ أحقا يا مولاتى .. كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شىء ..

فقالت الملكة بلهجة مغيظة :

ـــ هذا لأنك لم تكونى ملكة فى يوم من الأيام ..

فامتلأ صدر المرأة وتصلب ، وقالت :

ـــ عفوا يا مولاتى ، إنى ملكة حقا .

فحدجتها بنظرة غريبة ، وقالت بسخرية :

ـــ يا للعجب ، وعلى أى مملكة ..!

فقالت بزهو كبير :

ـــ على أوسع الممالك طرا .. قلب فرعون ..

وأحست الملكة بوهن وألم ، وخجل ، وأيقنت أنها انحدرت إلى مساجلة الراقصة فى القتال ، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار ، وتبدت عارية فى جلد المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها ، وتمسك بتلابيب غريمتها وتكيد لها كيدا . ونظرت لموقفها وموقف غريمتها . وهى تجلس منها جلسة متعجرفة ، وترد سهمها إلى نحرها ، وتتيه عليها بحب زوجها وسلطانه ، فشعرت بغرابة وذهول

وحيرة ، وتمنت لو تكون فى حلم ثقيل سخيف .

وأماتت عواطفها جميعا ، ودفنتها فى أعماق نفسها ، وارتدت سريعا إلى طبيعتها المتعالية ، وجرى فى عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء . فذكرت الغرض الذى جاءت من أجله ، وصدقت عزيمتها على أن تكفر عما بدر منها .

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرا وباطنا ، وقالت لها :

ـــ أيتها السيدة ، إنك لم تحسنى لقاء الملكة ، ولعلك أسأت فهم الغرض من زيارتى فثرت وغضبت ، ولكن اعلمى علم اليقين أنى ما قصدت إلى قصرك لشأن يخصنى أنا ..

فسكتت رادوبيس وحدجتها بنظرة مليئة بالارتياب .

ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب . وتناست الملكة ، وقالت فى هدوء :

ـــ لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجل ، أمور تتعلق بالعرش المجيد ، والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه .

فقالت رادوبيس بانفعال وسخرية :

ـــ يا للأمور الجليلة ! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى ؟.. ما أنا إلا امرأة يلذ الحب أن يجعلها شغله الشاغل ..

فتنهدت الملكة ، وأغضت عن لهجتها ، وقالت :

ـــ أنت تنظرين إلى أسفل ، وأنا أنظر إلى أعلى .. لقد حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعادته ، وإذا صدق حسبانى ، فينبغى أن تهديه سواء السبيل . إنه يفنى فى قصرك تلالا من الذهب ، وينتزع من صفوة رجاله أراضيهم حتى ضج الناس بالألم ، وجأروا بالشكوى ، وقالوا إن مولانا يبخل علينا بمال يبعثره على امرأة يحبها بغير حساب . فواجبك إن كنت تغارين على مجده حقا ، بين كالشمس فى يوم صاف .. أن تصديه عن الإسراف ، وتقنعيه برد المال إلى أصحابه ..

ولكن رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حق الفهم ، وكان وجدانها ثائرا وحقدها شديدا ، فقالت بقسوة :

ـــ إن الذى يحزنك حقا هو أنك ترين الذهب يتحول مع عطف فرعون إلى قصرى ..

فانتفض جسمها ، وسرت فيه قشعريرة ، وصاحت بها :

ـــ يا للبشاعة ..

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء :

ـــ لن يفرق شىء بينى وبين مولاى .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بيأس شديد وجرح عميق فى كبريائها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت واقفة وولت المرأة ظهرها ، وسارت فى طريقها متألمة حزينة غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة الغضب .

وصعدت رادوبيس أنفاسها مضطربة ، وأسندت رأسها الساخن إلى كفها ، وراحت فى تفكير قلق حزين ..

قبس من نور

وتنهدت رادوبيس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها : « واأسفاه إنى أتناسى العالم ، ولكنه يأبى أن ينسانى أو أن يدعنى فى طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضى وأوشابه .. رباه .. أحقا أن الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة .. أحقا أنهم يسلقون حبها بألسنة من لهب ؟. لقد انكمشت فى قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا . وغاب عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط على ألسنة قوم أشداء ، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود ، وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وإن تنوعت الدوافع التى تسوقها إلى الكلام ، فقد ترامى إليها فى زمن مضى أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم ، وقد سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب . فلا شك أن وراء العالم الهادئ الجميل الذى تعيش فيه عالما صاخبا تغلى مراجله بالأحزان والأحقاد .. وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهر طوالا لم تذق مثلها فى حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفا وحبا ، وذكرت فى غمرات حزنها الطارئ ما قال آنى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، فتساءلت فى هلع : لماذا لا تجند جنود ؟ لماذا لا يعبئ معبودها جيشا عرمرما ؟..

وقضت سحابة نهارها فى مخدعها كئيبة، ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثال بنامون، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان. ولا القعود بلا حراك أمام عينى الشاب المنهومتين .. فلبثت وحدها حتى الأصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرفل فى ثيابه الفضفاضة فتنهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعيها وضمها إلى صدره

العريض كما يفعل كل مرة ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس إلى جانبها على الديوان الوثير ، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها فى قلبه مشهد النيل الذى حمل سفينته منذ حين قليل : فقال لها :

ــ أين الصيف الجميل ؟.. أين لياليه الساهرة ، إذ تشق بنا السفينة جبهته المتجمدة الدكناء ، وإذ نسلم فى المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى . ونستمع لعزف العازفات . ونشاهد بأعين حالمة رقص الراقصات ؟

ولم تكن تستطيع أن تجاريه فى تذكره ، ولكنها لم ترض أن يحس بالعزلة فى عاطفة أو فكر ، فقالت :

ــ مهلا يا حبيبى ، ليس الجمال فى الصيف ولا فى الشتاء ، ولكنه فى حبنا ، وستجد الشتاء دفئا حنونا ما دام وقوده .

فضحك ضحكته العظيمة التى يضطرب لها وجهه وجسمه ، وقال :

ــ ما أجمل حديثك .. إنه أشهى إلى قلبى من مجد الدنيا جميعا .. ولكن ماذا تقولين فى الصيد والقنص ؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل ، ونعدو فى أعقاب الغزلان ، ونلهو حتى نشبع نفوسنا المنهومة ..

فقالت وقد غلبها الشرود :

ــ لتكن مشيئتك يا حبيبى ..

فحدجها بنظرة فاحصة ، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلبها يتيه بعيدا ، فقال :

ــ رادوبيس .. أقسم لك بالنسر الذى ألف بين قلبينا أن فكرا يسلبنى اليوم عقلك ..

فنظرت إليه بعينين حزينتين وأعياها القول ، فقال وقد بدا عليه الاهتمام :

ــ صدق حدسى فعيناك لا تكذبانى ، ولكن ماذا تمسكين عنى ؟.

فتنهدت من أعماق قلبها ، وعبثت يمناها بعباءته وهى لا تدرى ، ثم قالت بصوت خافت :

ـــ إنى أعجب لحياتنا ، فلشد ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش فى عالم قفر غير معمور .

ـــ نعم ما نصنع يا حبيبتى ، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب ، ولبثنا ضالين حتى هدانا الحب ، فمالك تتذمرين ؟.

فتنهدت مرة أخرى وقالت بحزن :

ـــ ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظا لا يغمض لهم جفن ؟

وقطب جبينه ، والتمعت عيناه بنور خاطف ، وأدرك بقلبه وساوسها ، فسألها بقلق :

ـــ ما الذى يحزنك يا رادوبيس ؟.. صارحينى بأفكارك . فحسبنا ما أضعنا فى غير حديث الحب .

فقالت :

ـــ لست اليوم كأمس ، فقد نقل إلى بعض عبيدى الذين يمشون فى الأسواق حديث قوم غاضبين يحز فى نفوسهم أن مولاهم حرمهم من أراضيهم ، ويضاعف من آلامهم أن أموالهم تنفق على قصرى هذا ..

فتبدى الغضب على وجه فرعون ، ولاح له شبح خنوم حتب يطل على جنته المطمئنة ، فيكدر صفوها ، ويزعج أمنها . واشتد به الغضب فصبغ وجهه بلون النيل فى إبان فيضانه ، وقال لها بصوت متهدج :

ـــ أهذا الذى يحزنك يا رادوبيس ؟.. الويل لأولئك المتمردين لا يمسكون عن غيهم ؛ ولكن لا تكدرى صفونا . ولا تبالى تباكيهم .. دعيهم لشأنهم ، وافرغى لى ..

فأحاطت يده بكفيها ، وضغطت عليها بحنو ، ونظرت إليه بعينين ضارعتين ، وقالت :

ـــ أنا قلقة حزينة ، ويؤلمنى أن أكون سببا لشكوى قوم منك .. وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه .. والمحب يا مولاى شديد المخاوف .

فقال باستياء وغضب :

ـــ كيف تخافين ، وأنت بين يدى ؟.

فقالت بتوسل :

ـــ مولاى .. إنهم يرمقون حبنا بعين الحسد ، وينفسون على هذا القصر الحب والطمأنينة والنعيم ، ولقد قلت لنفسى فى حزنى وقلقى : ما للحب وهذا الذهب الذى ينثره مولاى على ؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذى يؤلب قوما علينا . ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه ؟.. إذا كان بريق الذهب يا مولاى يخطف أبصارهم فاملأ به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم ..

ـــ وا أسفاه يا رادوبيس ، إنك تذكريننى بحديث أكره سماعه .

فقالت بتوسل :

ـــ مولاى إنه غشاوة فى سماء سعادتنا ، فامحها بكلمة .

ـ وما الكلمة هذه ؟.

فقالت بفرح ، وقد ظنت أنه يلين ويرضخ :

ـــ أن ترد إليهم أراضيهم .

فهز رأسه بعنف ، وقال بلهجة شديدة :

ـــ أنت لا تدرين من الأمر شيئا يا رادوبيس ، لقد قلت كلمتى فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدوننى ، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها ، وأتمنى دونها الموت ، أنت لا تدرين معنى الهزيمة فى نفسى ، إنه الموت ، ولو فازوا على بنيل بغيتهم لوجدتنى رجلا غريبا حزينا أسيفا لا قدرة له على الحياة ولا الحب .

ونفذت كلماته إلى قلبها ، فشدت على يديه بقوة ، وأحست برجفة تسرى فى أوصالها . وقد هان عليها كل شىء إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحب .

ونبذت رغبتها ، وأسفت على توسلاتها ، وصاحت بصوت متهدج :

ــ لن تذل أبدا .. لن تذل أبدا .

فابتسم إليها بحنو ، وقال :

ــ نعم لن أزل .. ولن تكونى القضاء الذى يسومنى الذل أبدا ..

فقالت وهى تلهث ، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة :

ــ لن تذل .. ولن تهزم .

وأسندت رأسها إلى صدره ، واستنامت إلى خفقان قلبه . وأحست فى غيبوبتها بأنامله تعبث بخصلات شعرها وخديها ، ولكنها لم تطمئن طويلا ، فقد أزعجها خاطر من الخواطر التى كدرت يومها ، فرفعت إليه رأسها ، ونظرت إليه بعينين قلقتين ، فقال لها :

ــ مالك ..

فقالت بعد تردد :

ــ يقولون إنهم فئة قوية ، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم .

فابتسم قائلا :

ــ ولكنى الأقوى ..

فترددت هنيهة ثم قالت :

ــ لماذا لا تعبئ جيشا قويا يأتمر بأمرك ؟

فابتسم الملك ، وسألها :

ــ أرى الوساوس تعاودك .

فتنهدت فى غيظ ، وقالت :

ــ ألم يبلغ أذنى أن الناس تهمس فيما بينها بأن فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة ؟. همس الناس إذا تجمع صار صراخا .. إنه كالشر يندلع لهيبا .

ــ يا لك من متطيرة متشائمة ..

فعادت تسأله بإلحاف :

ـــ لماذا لا تدعو الجنود ؟.

فنظر إليها نظرة طويلة ، وقد بدا عليه التفكير ، ثم قال :

ـــ إن الجنود لا تدعى بغير سبب .

وبدا على وجهه الغضب ، فاستدرك :

ـــ إنهم يضللون الأفكار ، ويشعرون بغضبى عليهم . فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر . وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم ..

ففكرت مليا ، ثم قالت بصوت حالم ، وكأنها تحدث نفسها :

ـــ اخلق العلل وادع الجنود .

ـــ إن العلل تخلق نفسها بنفسها .

فأحست بيأس ، وأحنت رأسها الحزين ، وأغمضت عينيها . ولم تكن ترجو أملا ، ولكن لاح لها فى الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر ، فبهتت وذهلت ، وفتحت عينيها ، فإذا الفرح يتألق فيهما . ودهش الملك ، ولكنها لم تباله ، وقالت وهى لا تملك عواطفها :

ـــ وجدت سببا !.

فنظر إليها متسائلا ، فاستطردت :

ـــ قبائل المعصايو .

فأدرك قصدها ، وهز رأسه يائسا ، وتمتم قائلا :

ـــ لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام .

ولكنها لم تيأس ، وقالت :

ـــ من يدرى بما يجرى وراء الحدود ؟ إن لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا . فلنبعث إليه برسالة سرية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقتال ، ويرسل فى طلب النجدة ، فتسمع صوته الملأ ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب ، حتى إذا اجتمع لواؤها إليك ، وصلت بها جناحك ، وأشهرتها سيفا فى يدك تعلى به كلمتك وتفرض طاعتك .

واستمع لها فرعون فى ذهول ودهشة ، وقد عجب أيضا لأنها لم تخطر له ببال . على أنه لم يكن يفكر كثيرا فى تكوين جيش قوى لا تدعو إليه الحالة الحربية ، واعتقد ـــ وما زال يعتقد ـــ أن تذمر الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا لقمعه . ولكنه بات يعتقد أن عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الالتماسات وإعلان الشكوى ، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة ، ومال إليها بجامع قلبه . وكان إذا مال إلى شىء تعلقه ، وانشغل به واندفع فى سبيله برغبة جنونية لا يلوى على شىء . لهذا نظر إلى عينى رادوبيس بفرح وابتهاج ، وصاح بصوت قوى :

ـــ نعم الفكرة يا رادوبيس ! نعم الفكرة !.

فقالت بفرح غريب :

ـــ هذا ما يحدثنى به قلبى .. وإنها لسهلة التحقيق سهولة تناولى هذه القبلة من فيك الحبيب .. وما علينا إلا الكتمان .

ـــ نعم يا حبيبتى .. ألا ترين أن عقلك كقلبك كنز ثمين ؟، وحقا ما علينا إلا الكتمان ، واختيار رسول أمين ، فدعى لى هذا .

سألته :

ـــ من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفنرو ؟

فأجابها ببساطة :

ـــ سأختار حاجبا من رجالى المخلصين .

وكانت لا تطمئن إلى قصره العظيم ، لغير ما سبب معقول ، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة . ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها ، وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر . وزاد من حيرتها أنها أدركت أن افتضاح السر معناه شديد الخطر ، حتى ليكبر ذكره على الخاطر . وهمت فى لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا ، ولكنها ذكرت بغتة الشاب الطفل ذا العينين الصافيتين الذى يعمل

بالحجرة الصيفية ، وأحست إلى ذكره بطمأنينة غريبة ، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة ، وقلبه معبد تقدم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء .. فهو رسولها .. وهو الأمين . ولم تتردد فقالت له بثقة :

— دعنى أختار الرسول بنفسى .

فاستضحك الملك وقال :

— يا لك من رعديد اليوم .. لست كعهدى بك .. ومن عسى أن تختارى يا ترى ؟.

فقالت بخشوع :

— مولاى .. المحب شديد المخاوف ، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية ، له سن الشباب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة ، ويخلص لى إخلاصا لا مزيد عليه . ومزيته الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشىء ، وإنه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدرى بأمرها الشديد الخطر .. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا المهالك آمنين .

فهز الملك رأسه راضيا . وكان يكره أن يقول لها لا . وظنت رادوبيس أن السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت إليه بادئ الأمر ، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وأيقنت أنها ستستطيع عما قريب أن تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح .

وحنت رأسها بالأحلام ، فراق الملك جمال شعرها ، وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فانحلت وسال على كتفيها ، فتنشقه وجمعه بين يديه ، وغمر به رأسه ووجهه فى دعابة حتى لم يبد منهما شىء .

الرســـول

وأشرق صباح اليوم الثانى ، وكان الجو باردا والسمـاء متلفعة بأردية السحب ، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برىء يعلن ظاهره عن باطنه ، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذيول ليل نسيها وراءه بعد إدباره ..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها ، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت فى المعبد ، وأقسمت ليزول الماضى بشوائبه . كان الذى ينتظرها أن تخدع بنامون ، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها . على أنها لم تتردد قط لأنه كان ينبغى أن تسبق الزمن ، وكانت تحنو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن تقسو فى سبيلهما قساوة مرة .. وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأن التغرير ببنامون كان أمرا سهلا لا يكلف مكرا ..

وسارت على أطراف أصابعها ، فوجدت الشاب يتطلع إلى صورتها ، ويترنم مغنيا أغنية كانت تغنيها فى الأماسى الخوالى مطلعها :

إذا كان حسنك يصنع المعجزات
فلماذا لا يقدر على شفائى

وأخذت بغنائه ، ولكنها انتهزت الفرصة ، وغنت تتم أغنيته :

هل أعبث بما لا علم لى به
والأفق مستتر خلف سحاب
وعسى أن تكون المدخر لقلبى

فتحول الشاب إليها فزعا مسحورا ، فتلقته بضحكة عذبة ، وقالت له :

ـــ إن لك صوتا عذبا ، فكيف أخفيته عنى طوال هذه الأيام ؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيا ، وارتجفت شفتاه ارتباكا ، وقابل تلطفها

بدهشة .

وأدركت المرأة ما يدور بخلده ، فقالت تستدرجه :

ـــ أراك تلهو بالغناء ، وتترك العمل ..

فبدا عليه الإنكار ، وأشار إلى صورتها المحفورة . وتمتم : « انظرى » .

وكانت الصورة قد استوت وجها جميلا لا تنقصه الحياة ، فقالت بإعجاب :

ـــ إنك لقادر يا بنامون .

فتنهد الشاب ارتياحا ، وقال لها بامتنان :

ـــ شكرا لك يا سيدتى .

فقالت تعطف الحديث إلى غايتها :

ـــ ولكنك قسوت علىّ يا بنامون .

ـــ أنا .. كيف يا مولاتى ؟

فقالت :

ـــ خلقت لى نظرة جبارة ، وأنا أشتهى أن أكون كالحمامة .

فلزمه الصمت ولم يبن ، ففسرت صمته على هواها ، وقالت :

ـــ ألم أقل إنك تقسو على .. فكيف ترانى يا بنامون .. أجبارة قاسية جميلة كهذه الصورة ؟ يا لها من صورة ! إنى أعجب كيف ينطق الحجر . ولكنك تحسب أن قلبى لا يشعر كهذا الحجر ، أليس كذلك ؟ لا تهم بالفرار فهذا هو اعتقادك . ولكن لماذا يا بنامون ؟.

ولم يدر ما يقول ، فغلبه الصمت ، وكانت توحى إليه بأفكارها ، فيصدقها وينساق إليها ويشتد ارتباكه ، واستدركت المرأة :

ـــ لماذا يا بنامون تحسبنى قاسية ؟. إنك تؤمن بالظواهر ، لأنك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك ، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح . أما نحن فلنا طبيعة أخرى ، والصراحة تضيع علينا لذة الفوز ، وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا .

وساءل الشاب نفسه حائرا : ماذا تعنى يا ترى ، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها .. أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين ، لا تحس بالنار الملتهبة فى كيانه ، فما الذى غيرها ؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو ؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التى تحرق قلبه ؟! هل تعنى حقا ما تقول ! وهل تعنى حقا ما أفهمه ؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت :

ـــ آه يا بنامون أنك تقسو علىّ بدورك ، وآية ذلك الصمت الذى ترد به علىّ .

فحدجها بنظرة والهة ، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيه ، وقد أيقن صدق ظنونه ، فقال بصوت متهدج :

ـــ الدنيا لا تسعنى كلاما .

فتنهدت ارتياحا أن حلت عقدة لسانه ، وقالت بصوت حالم :

ـــ وما حاجتك إلى الكلام ؟. فلن تقول شيئا أجهله .. أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرا ، وتركنا فى جسمك أثرا من قلوبنا خالدا .. نعم ها هنا عرفت سرا رهيبا ..

وتفرست فى وجهه زمنا قصيرا ، ثم قالت :

ـــ ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبى ؟. على حين بغتة عجيبة كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها إلى إنسان فى مكان قصى ، وأن أبعث بها مع رسول ترتاح إليه نفسى ، ويثق فيه قلبى . وكنت جالسة وحدى أستعرض أمام ناظرى أقواما من الرجال والنساء ، ومن العبيد والأحرار ، وما أحس فى كل مرة إلا بالجفاء والقلق . ثم لا أدرى إلا وخيالى يتسلل إلى هذه الحجرة ، ووجدتنى فجأة أذكرك يا بنامون ، فترتاح نفسى ويطمئن قلبى ، بل أحسست بما هو أعمق من هذا ، وهكذا عرفت سر قلبى .

فغمر الفرح وجه الشاب ، وأحس بالسعادة إلى حد الذهول ، فجثا على

ركبتيه أمامها ، وهتف من أعماق قلبه :

ــ مولاتى !

فوضعت كفها على رأسه ، وقالت بحنان :

ــ هكذا عرفت سر قلبى ، وإنى لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل طويل .

فقال بنامون ، وكان يتيه فى غمرات الذهول :

ــ مولاتى ، أقسم لقد شهدنى الليل وأنا ذوب عذاب ، وهاك الصبح يلقانى نسمة من سعادة معطرة . لقد أخرجتنى كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور ، ونقلتنى من دياجير اليأس إلى سحر السعادة . لقد أحببت نفسى بعد أن أشفيت على الفناء .. أنت سعادتى وحلمى وأملى .

وكانت تصغى إليه فى صمت حزين ، وقد شعرت بأنه يصلى صلاة حارة ، وإنه يهيم فى جهالة الأحلام الساذجة المقدسة ، فوجمت وعاودها شىء من الألم والندم . ولكنها لم تستسلم طويلا لعواطفها التى أثارها فى قلبها بهيامه فقالت فى دهاء :

ــ إنى أعجب كيف لم أعرف قلبى منذ أجل طويل ، بل إنى أعجب للمصادفات التى لم توفقنى إلى سره إلا حين حاجتى إلى إرسالك إلى مهمة بعيدة ، فكأنها دلتنى عليك ، وحرمتنى منك فى لحظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة :

ــ سأفعل ما تريدين بروحى وقلبى .

فسألته بعد تردد :

ــ وإن كان ما أريد سفرا إلى بلد لا تبلغه إلا بشق الأنفس ؟!

ــ لن يشق علىّ منه إلا أنى لا أراك كل صباح .

ــ فليكن غيابا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك ، وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة منى ، فيدلك على الطريق ، ويذلل لك الصعاب .

وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطلع على ما فى صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة ، فتسلمها له يدا بيد ، ثم تعود إلىّ .

وأحس بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالنخوة والخيلاء ، وكانت يدها على كتف منه ، فهوى بفمه عليه ولثمها بشوق ووجد ، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها .

وفى طريق العودة عاودها إحساس حزين ، حتى قالت لنفسها : أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاى يختار رسوله ، من أن أعبث بقلب هذا الشاب ؟. على أنه كان سعيدا ، أسعدته كلمة كاذبة ، بل كان فى حالة يحسد عليها السعداء حقا ، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة ، حتى تيأس من لياذها بالكذب !!.

الرسـالة

وفى مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهز فى يده رسالة مطوية ، يشرق وجهه بنور السعادة ، فحدجتها بنظرة غريبة وتساءلت : ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق ، وتسير الأمور وفق أحلامها ! وبسط الملك الرسالة ، وقرأتها بعينين مبتهجتين ، وكانت موجهة إلى الأمير كارفنرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر . وقد صارحه فيها بمتاعبه ، وبرغبته فى تعبئة جيش جرار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم ، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذى صفة رسمية ، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية ، ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها ، واجتاحت بها البلدان والقرى .

وطوتها رادوبيس مرة أخرى ، ثم قالت :

ـ إن الرسول على أهبة الاستعداد .

فقال الملك مبتسما :

ـ والرسالة جاهزة .

وبدا على وجهها التأمل والأحلام ، ثم سألت :

ـ ترى كيف يقابلون رسالة كارفنرو ؟

فقال الملك بلهجة اليقين :

ـ ستهز القلوب جميعا ، وقلوب الكهنة أنفسهم ، وسوف يدعو الحكام إلى تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد ، فلا يلبث الجيش الذى يناط به أملنا أن يأتينا بعَدده وعدده .

واستخفها الفرح وسألته بلهفة :

— وهل ننتظر طويلا ؟

— أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول فى الذهاب والإياب .

ففكرت هنيهة ، ثم عدت على أصابعها ، وقالت :

— إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل .

فضحك الملك وقال :

— هذا فأل حسن يا رادوبيس ، فعيد النيل هو عيد حبنا ، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة .

وتفاءلت هى خيرا وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملا عزيزا فى ذاك اليوم الذى تعده بحق مولدا لسعادتها وحبها . وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس محض مصادفة ، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها .

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار ، ثم قبل رأسها وقال :

— لله هذا الرأس الثمين .. لشد ما أعجب به سوفخاتب ، ولشد ما أعجب بالفكرة التى أبدعها ، فلم يملك نفسه أن قال لى : يا له من حل يسير لمشكل عسير ، كأنه زهرة مونقة تخرج من ساق ملتوية ، وأغصان شديدة التعقيد .

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبح به لإنسان، حتى ذلك الوزير المخلص سوفخاتب ، فسألته :

— هل علم الوزير بسرنا ؟

فقال ببساطة :

— نعم : إن سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلى وقلبى ، فلا أكتمهما شيئا .

ودوى اسم طاهو فى أذنيها دويا شديدا ، فتجهم وجهها ، وبدا القلق فى عينيها ، وسألته :

— وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكا :

— لشد ما تحاذرين يا رادوبيس ، ولكن اعلمى أنى لا آمن نفسى على شىء لا

آمنهما عليه .

فقالت :

— إن حذرى يا مولاى لا يرتقى لإنسان تثق فيه هذه الثقة .

ولكنها ذكرت بالرغم منها طاهو فى ساعة وداعه الأخير ، ودوى فى أذنيها صوته الأجش ، وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا ، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شيء ؟!.

ولكن الوساوس لم تجد فرصة للعبث بقلبها ، لأنها كانت تنسى نفسها بين يدى حبيبها .

* * *

وجاء فى الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته ، غارقا فى القلنسوة حتى الأذنين ، وكان خداه متوردين ، وعيناه لامعتين بنور فرح سماوى .. فسجد بين يديها فى صمت وخشوع ، وقبل حاشية ثوبها فى عبادة ، فداعبت رأسه بأناملها ، وقالت له بحنو :

— لن أنسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .

فرفع إليها وجهه الجميل البرىء ، وقال بصوت متهدج :

— فى سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنى الآلهة على تحمل ألم الفراق .

فقالت له مبتسمة :

— ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى فى أفراح المستقبل أحزان الماضى جميعا .

فتنهد قائلا :

— طوبى لمن يحمل فى قلبه حلما سعيدا يؤنس وحدته ، ويرطب جفاف ريقه .

فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه وقالت :

— لا أوصيك بالحذر .. أين تودعها ؟

فقال :

ـــ على قلبى يا مولاتى تحت منطقتى .

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة ، وهى تقول :

ـــ هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آنى يمهد لك السبيل ، ويدلك على أول قافلة تقوم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدا عليه الارتباك والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ، وكفاه ترتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته وخفقاته . ثم مضى راجعا فغيبه الباب ، وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تتعلق به حياتها .

طـاهو يهذى

وكان الانتظار مرا من أول عهدها به ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة :ليت الملك لـم يفش سر الرسالة لإنسان . كانت تتمنى هذا بحرقة لم يخفف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين . ولم تكن وساوسها ريبة صريحة ، ولكن ثمة قلق دفعها إلى التساؤل : ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت ؟ هل يترددون فى الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشر المبيت .. رباه .. إن إفشاء سر الرسالة أمر خطير .. لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطنى . وأحست بقشعريرة تسرى فى جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوساوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : إن كل شيء يسير وفق الخطة التى رسمناها ، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف ؛ وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على أنها كانت لا تكاد تطمئن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال أنها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلص من الألم ، وأنها تسمع صوته الأجش ذا النبرات المتألمة المجروحة . وقد عانت من مخاوفها الآلام ، ولكنها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذى يكتنفها .

ترى هل يحق لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظن ؟.. إن كل الدلائل تدل على أنه نسى . ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئا وامتنع عنه طواعية ؟. فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرما محرما ، وما كان بوسعه إلا الإذعان

والتسليم ، ولا يعنى هذا أنه نسى أو برأ .

ترى هل يبقى شىء من زوايا الماضى عالقا بقلبه ؟.. إن طاهو جبار عنيد ، وقد يستحيل الحب فى قلبه حقدا موريا ، فيتحفز عند سنوح الفرصة للانتقام .. على أنها لم تنس فى أحزانها أن تنصف طاهو ، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه فى حب مولاه ، وأنه رجل الواجب الذى لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع .

كان كل شىء يدعو إلى الطمأنينة ، ولكن وساوسها لم تدعها فى طمأنينتها قط ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط ، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد ؟.. لقد لحقها الفزع ، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها . وكان خاطرا لا يخطر لها على بال قبل يوم ، أما اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة . وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلا إلى دفعه أو الإفلات منه ، وفكرت فى ذلك تفكيرا مضطربا ، وقالت لنفسها : فلأدعه ولأحادثه لاستبطان ذاته ، وعسى أن أفوز بدفع شره — إن كان هناك شر يدفع — فأنقذه من نفسه ، وأنقذ مولاى من شره ، وما لبثت رغبتها أن تحولت إلى عزيمة لا تقبل التردد ، فاستمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق .. ودعت من فورها شيث وأمرتها بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه . وذهبت شيث وانتظرت هى فى بهو استقبالها على قلق ؛ ولم يكن يداخلها ريب فى تلبيته لدعوتها . وذكرت فى انتظارها اضطرابها ، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود فى الأيام الخوالى . فأدركت أنها منذ الساعة التى نزل فيها الحب بقلبها ، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة ، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر ، أو قلق كاذب ..

وجاء طاهو كما توقعت ، وكان مرتديا لباسه الرسمى ، فوجدت فى ذلك معنى مطمئنا ، فكأنه يقول لها إنه نسى رادوبيس غانية القصر الأبيض ، وأنه

يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون .

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال ، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

— أسعد الرب أيامك أيتها السيدة الجليلة .

فقالت وهى تتفرس فى وجهه :

— وأيامك أيها القائد الجليل ، وإنى أشكرك على قبول دعوتى .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

— إنى رهن إشارتك يا سيدتى .

رأته كما كان قويا متين الأسر ، دموى البشرة ، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيرا طارئا لا يمكن لغير عينيها أن تراه . وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها ، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من وجه الرجل .. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث فى تلك الليلة الغريبة التى فصلت بينهما منذ قريب من عام .. واأسفاه كان طاهو كجو عاصف ، فأمسى كجو راكد .. وقالت له :

— إنى دعوتك أيها القائد لأهنئك على الثقة العظيمة التى يوليك إياها الملك .

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال :

— شكرا لك يا سيدتى ، هذه نعمة قديمة منت بها علىّ الأرباب .

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

— ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتى من جميل الثناء .

وتفكر الرجل لحظة ، ثم تذكر فقال :

— لعلك يا سيدتى تعنين الفكرة النيرة التى أوحى بها عقلك الراجح ؟.

فهزت رأسها أن نعم ، فاستطرد :

— إنها فكرة رائعة ، جديرة بذكائك اللامع .

فقالت وهى لا تبدى السرور :

ـــ إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة ، وللوطن السلام والطمأنينة .

فقال القائد :

ـــ هذا حق لا ريب فيه ، وهو ما جعلنا نهلل لها ونكبر .

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت :

ـــ سيأتى يوم قريب تحتاج فكرتى إلى قوتك لتحقيقها ، وتتويجها بالنجاح والفوز .

فأحنى الرجل رأسه وقال :

ـــ شكرا لك على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان طاهو وقورا رزينا جادا ، لا كما عهدته قديما ، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك ، واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة . وكانت تلح عليها رغبة قوية فى أن تفاتحه فى الموضوع القديم ، وأن تسأله العفو والنسيان ، ولكن خانها البيان ولم تدر ما تقول ، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل ، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة ، ورأت فى اللحظة الأخيرة أن تعلن له عن عواطفها الطيبة بطريقة أخرى ، فمدت له يدها وقالت وهى تبتسم إليه :

ـــ أيها القائد الجليل ، إنى أمد لك يد التقدير والصداقة .

فوضع الرجل يده الغليظة فى يدها الرخصة الرقيقة ، وبدا عليه التأثر فلم يحر جوابا ، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة .

وفى طريق العودة إلى السفينة تساءل محموما : « لماذا دعتنى هذه المرأة ؟ » . ترك العنان لعواطفه التى كبح جماحها فى حضرتها فاختل توازنه ، وانكفأ لونه ، وارتجفت أوصاله ، ومُضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة . وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح كالثمل ، كأنه عائد من معركة خاسرة

أفقدته حكمته وشرفه . وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصا جنونيا ، والجو يعفره غبار ثائر خانق . وكان الدم يتدفق فى عروقه ساخنا هائجا مجنونا مسموما ، ووجد إبريقا من الخمر على خوان المقصورة ، فصبه فى فمه حتى أتى عليه فى استهتار جنونى ، وارتمى على الديوان فى حالة يأس قاتل .

وفى الحقيقة لم يكن نسيها ، ولكنها كانت تكمن فى سرداب خفى من نفسه ما فتئ يسده بالعزاء والصبر وشعوره القوى بالواجب ، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام ، انفجر المستودع المختفى فى نفسه ، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعا ، وأحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح ، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين فى معركة واحدة منتهية . وأحس بدوار فى رأسه المختل ، وجعل يحدث نفسه فى غضب كاسر ، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه . دعته لتستوثق من إخلاصه ، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب ، وفى سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه ، يا للغرابة أن رادوبيس العابثة القاسية تجد وتحنو وتتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه ، وتشفق من خيانة طاهو ، الذى كان يوما يلتصق بنعلها كالتراب ، ثم نفضته فى حالة تقزز وملل ، الويل للسماء والأرض ، والويل للدنيا جميعا . إنه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل ، وبغيظ خانق يطحن نفسه الجبارة . إنه يغضب غضبا جنونيا جارفا ، ويشعل دمه نارا موقدة ، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئا ، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء .

وما أن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعونى ، حتى غادرها مسرعا ، وسار يترنح فى الحديقة لا يلتفت إلى تحيات الجنود ، متجها إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات ، وفى أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب ، وكان عائدا من جناح الملك . وقابله الوزير بابتسامة تحية ، ولكنه وقف حياله

جامدا كأنه لا يعرفه . وعجب سوفخاتب لجموده ، وقال له :

— كيف حالك أيها القائد طاهو ؟

فقال طاهو بسرعة غريبة :

— أنا .. كأسد وقع فى شراك .. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة !

فبدا الإنكار على وجه سوفخاتب وقال :

— ما هذا الكلام ؟.. أى شبه بين الأسد والسلحفاة ، أو بين الشراك والفرن ؟..

فقال طاهو فى ذهوله :

— أما السلحفاة فتعمر طويلا ، وتتحرك فى بطء وتنوء بحمل ثقيل ، وأما الأسد فينكمش ويزأر ويثب فى عنف فيقضى على فريسته .

فتفرس الرجل فى وجهه دهشا وقال :

— أغاضب أنت ؟. لست كعهدى بك !

— أنا غاضب .. كيف تنكرنى أيها الجليل ، أنا طاهو ربيب الحرب والقتال.. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل .. إن آلهة الموت عطشى ولابد يوما أن أروى غلتها .

فهز سوفخاتب رأسه متوهما أنه عرف ما هناك ، ثم قال :

— آه .. الآن فهمت أيها القائد ، إنها خمر مريوط المعتقة .

فقال طاهو بحدة :

— كلا .. كلا .. الحق أنى شربت كأسا من الدم ثم تبين أنه دم إنسان شرير ، فتسمم دمى ، وزاد الأمر خطورة أنى صادفت فى طريقى إلى هنا رب الخير نائما فى المرج ، فأغمدت سيفى فى قلبه .. هيا إلى القتال .. فالدم شراب الجندى الباسل .

فقال سوفخاتب ذاهلا .

ــ إنها الخمر ولا شك ، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك فى الحال .

ولكن طاهو هز رأسه استهانة وقال :

ــ الحذر الحذر أيها الرئيس ، إياك والدم الفاسد ، فهو السم بعينه ، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقض الأسد .

قال ذلك ثم سار فى طريقه لا يلوى على شىء ، تاركا سوفخاتب فى ذهول وغرابة .

فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونى ، وقصر بيجة ، ودار الحكومة ، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر ، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وكان كل يوم يدنو يدنيها من الفوز ، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل . وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل ، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت ، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة ، أو يقنع مضطرا بعرضها على الملكة ، ولكنه وجد فيها معنى جديدا خطيرا ، لم يشأ أن يتحمل تبعة إخفائه عن مولاه ، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه ، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة ، وكانت التماسا خطيرا موقعا عليه من جميع رجال الكهنوت ، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأبيس، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها ، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى .

كان الخطاب قويا حازما ، فغضب الملك ، ومزقه إربا ، ورمى به على أرض الحجرة وصاح :

ـــ سوف أجيبهم بعد حين قليل .

فقال سوفخاتب :

ـــ إنهم يلتمسون جماعة ، وكانوا يلتمسون فرادى .

فقال الملك الغاضب :

ـــ وسأضربهم جميعا ، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل .

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته ، وأنه استقبل استقبالا شعبيا رائعا اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالى ، وأن الهتافات تصاعدت باسمه ، وهتف القوم أيضا لحقوق الآلهة التى ينبغى أن تصان وتخدم ، وجاوز هذا القدر قوم ، فصاحوا باكين : « واحسرتاه ! إن أموال آمون تنفق على راقصة » .

ووجم الرئيس أسفا وحزنا ، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضا ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته وقال آسفا :

ـــ إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئا .

فقال سوفخاتب بحزن :

ـــ ليس لديه يا مولاى إلا قوة الشرطة ، وهى لا تجدى فى مقاومة جموع غفيرة .

فقال الملك بغضب :

ـــ وليس لدى إلا الانتظار على مضض ، لقد أدميت وحق الرب كبريائى !.

وخيمت سحابة من الحزن على آبو المجيدة ، شملت قصورها الشامخة ودور الحكم فيها . وكانت الملكة نيتو قريس تقبع فى جناحها رهينة حبس ووحشة ، تعانى آلام قلبها المنفطر وكبريائها الجريحة ، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيفتين . وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين ، ويقول آسفا لطاهو الصامت الكئيب : « هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد ؟! واحزناه » .

واستحالت سعادة الملك غضبا وغيظا ، وكان لا يذوق الراحة إلا حين يرتمى بين يدى المرأة التى أسلمها نفسه ، وكانت تدرك ما به ، فكانت تداعبه وتحنو

عليه وتهمس فى أذنه : « صبرا » فيتنهد ويقول حانقا « نعم .. حتى أقبض على ناصية القوة » .

ولكن أشتد الحرج ، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات ، واستقبل بالمظاهرات فى كل مكان ، وتعالى الهتاف باسمه فى البلدان . وضاق بذلك كثير من الحكام ، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون . فاجتمع حكام أمبوس ، وفرمونتس ، ولاتولس ، وطيبة ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقر رأيهم على مقابلة الملك . وقصدوا إلى آبو وطلبوا المقابلة ، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سوفخاتب ، وتقدم حاكم طيبة بين يديه وحياه تحية العبودية والإخلاص ثم قال :

ـــ مولاى ، الإخلاص الحق لا ينفع بأن يكون عاطفة فى القلب ، ولابد أن يقرن بإسداء النصح والعمل الصالح والافتداء إذا حزب الأمر ، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة ، ولكنا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا ، فلابد من قولة الحق .

فصمت فرعون هنيهة ثم قال للحاكم :

ـــ تكلم أيها الحاكم فإنى مصغ إليك .

فقال الرجل بشجاعة :

ـــ مولاى . الكهنة غاضبون ، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم فى الصباح والمساء ، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضى إلى أصحابها ..

فبد الغضب على وجه الملك وقال بحنق :

ـــ هل يصح أن يذعن فرعون لإرادة الناس ؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة :

ـــ مولاى . إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون ، فلا إذعان ، لكن تعطف من مولى قادر على عباده .

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال :

ـــ لا أرى فى التراجع سوى الخنوع .

فقال الرجل :

ـــ معاذ الرب أن أشير إلى مولاى بالخنوع ، ولكن السياسة بحر لجى ، الحاكم كالربان يتفادى الريح العاصفة ، وينتهز الفرصة السعيدة .

ولكن الملك لم يعجبه قوله ، وهز رأسه باحتقار وعناد ، واستأذن سوفخاتب طالبا الكلام ، وسأل حاكم طيبة قائلا :

ـــ هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم ؟

فقال الحاكم بثبات ويقين :

ـــ نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثثت عيونى فى الأقاليم ، فشهدوا غضب الشعب عن كثب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .

وقال حاكم فرمونتس :

ـــ وهذا ما فعلته فجاءتنى أنباء مؤسفة .

وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ، وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة .

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه فى جناحه الخاص ، وكان غاضبا مهتاجا يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :

ـــ إن هؤلاء الحكام مخلصون أمناء ، ولكنهم ضعاف ، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشى للهوان ..

وسرعان ما أمن طاهو على رأى مولاه وقال :

ـــ إن التراجع هزيمة يا مولاى !

كان سوفخاتب يفكر فى احتمالات أخرى فقال :

ـــ ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات ، والحق أن قلبى لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب فى آبو .

فبادر طاهو قائلا :

ـــ إننا نسيطر على آبو .

ـــ لا ريب فى هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه فى العيد الماضى تصاعدت بضعة هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد حقق إرادته ، فينبغى أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخا .

فقال الملك :

ـــ إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .

ولكن لم ينفك سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره ، فقال وكان يؤمن فى قلبه باقتراح الحكام :

ـــ سيأتى الرسول فى القريب ، وسيتلو رسالته على الملأ ، ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئنانا إلى التعبئة وأشد حماسة ، حتى إذا قبض مولاى على ناصية القوة ، أملى إرادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعا برأى سوفخاتب ، وأحس بوحشة فى جناحه الخاص ، فهرع إلى قصر بيجة الذى لا تلاحقه الوحشة إليه قط . وكانت رادوبيس تجهل ما دار فى الاجتماع الأخير ، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه ، ولكنها لم تلق صعوبة فى قراءة صفحة وجهه الحساس ، والشعور بما يضطرم فى قلبه من الغضب

والسخط ، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها مشفقا من الظهور ، فقال متذمرا :

ـــ أما علمت يا رادوبيس ؟ إن الحكام والوزراء يشيرون عليّ برد الأراضى إلى الكهنة ، والرضاء بالهزيمة ؟

فتساءلت بانزعاج :

ـــ ما الذى حثهم على إبداء هذه المشورة ؟

فروى الملك ما قال الحكام ، وما نصحوه به ، وكانت تزداد انزعاجا وحزنا ؛ وما تمالكت نفسها أن قالت :

ـــ إن الجو يغبر ويظلم وما حمل الحكام على المكاشفة بآرائهم إلا خطر فادح .

فقال الملك بازدراء :

ـــ إن شعبى غاضب .

ـــ مولاى ، إن الناس كالسفينة الضالة بلا سكان ، تحملها الرياح كيفما تشاء .

فقال بوعيد مخيف :

ـــ سأذهب ريحهم .

وعاودتها المخاوف والشكوك ، وخانها صبرها فى تلك اللحظة فقالت :

ـــ ينبغى أن نستوصى بالحكمة ، وأن نتراجع زمنا قصيرا مختارين ، وإن يوم النصر لقريب .

فنظر لها بغرابة وقال :

ـــ أتشيرين على بالخضوع يا رادوبيس ؟

فضمته إلى صدرها وقد آلمتها لهجته ، ثم قالت وقد فاضت عيناها بدمع

سخين :

— أحرى بمن يتحفز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداما ، والنصر رهين بالنهاية .

فتأوه الملك قائلا :

— آه يا رادوبيس .. إذا كنت تتجاهلين نفسى ، فمنذا الذى يمكن أن يعرفها ؟ أنا من إذا نزل مرغما على إرادة إنسان ذبل كمدا كوردة سفتها الرياح .

فبدا التأثر فى عينيها السوداوين ، وقالت فى حزن عميق :

— فداؤك نفسى يا حبيبى ، لن تذبل قط وصدرى يرويك حبا صافيا .

— سأعيش منتصرا فى كل لحظة فى حياتى ، ولن أمكن خنوم حتب من أن يقول إنه أذلنى ساعة !

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت :

— أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانا ؟

— التسليم حيلة العاجز ، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف تتحطم على أسنانه قوى الخائنين .

فتنهدت حزينة آسفة ولم تحاول معادوته ، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه وكبريائه ، ومنذ تلك اللحظة وهى تتساءل جزعة متى يعود الرسول ؟.. متى يعود الرسول ؟.. متى يعود الرسول ؟..

ما أشق الانتظار .. لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد فى الدنيا .. كم عدت الدقائق والساعات وترقبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها ، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتى من الجنوب . وكم حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها ، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل منال : أين أنت يا بنامون ؟! حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم ، فلا

طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته !؟

وتقضت الأيام تجر ثقلها جرا بطيئا ، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة فى أفكارها ، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة ، فرفعت رأسها وسألتها :

ــ ما وراءك يا شيث ؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث :

ــ مولاتى ، جاء بنامون .

وغمرها الفرح ، فانتفضت واقفة كطير فزع ، وهى تصيح :

ــ بنامون !.

فقالت الجارية :

ــ نعم يا مولاتى ، إنه ينتظر فى البهو ، وطلب إلى أن أؤذنك بقدومه . كم لوحه السفر !.

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو ، فألفته واقفا ينتظر مقدمها وفى عينيه شوق صارخ ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل ، فوقر فى نفسه أن فرحها به ، وله ، فغمرته سعادة إلٰهية وارتمى على قدميها كالعابد ، ولف ذراعيه حول ساقيها بحنان ووجد ، وهوى بفمه إلى قدميها .. وقال :

ــ معبودتى ، حلمت مائة مرة أنى أقبل هاتين القدمين ، وهأنذا أحقق أحلامى .

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة :

ــ بنامون العزيز .. بنامون .. أحقا عدت إلىّ ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة ، ودس يده فى صدره فأخرج حقا من العاج صغيرا وفتحه ، وإذا ما فيه تراب .. ثم قال :

ــ هذا تراب مما كانت تطأ قدماك فى الحديقة ، جمعته بيدى واحتفظت به فى

هذا الحق ، وحملته معى فى سفرى ، وكنت أقبله كل مساء قبل استسلامى للكرى ، ثم أحفظه على قلبى ..

وأصغت إليه على جزع وتململ ، وكان شعورها منصرفا عن حديثه ، ونفد صبرها ، فسألته برقة تدارى بها جزعها :

ــ ألا تحمل شيئا !

فدس يده فى صدره مرة أخرى ، وأخرج كتابا مطويا ومد لها يده به ، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد ، وأحست بتخدير فى أعصابها وخور فى قواها ، وألقت على الرسالة نظرة طويلة ، وشدت عليها بيدها ، وكادت تنسى بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرا هاما وسألته :

ــ ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفنرو ؟

فقال الشاب :

ــ بلى يا مولاتى ، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة . وإنه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية .

ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا ، لأن الفرح الذى غمر حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :

ــ أستودعك الرب إلى حين ، وإن حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام .

وجرت حاملة الرسالة ، وكان قلبها ينادى حبيبها ومولاها من أعماقها ، ولولا التحرج ، لطارت إليه فى قصره كما فعل النسر من قبل ، تزف إليه البشرى السعيدة ..

الاجتمـــاع

وجاء يوم عيد النيل ، واستقبلت آبو المحتفلين من أقاصي الجنوب والشمال ، وتعالت فى جوها الأناشيد وازينت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون ، واستقبل الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس فى طريقهم إلى القصر الفرعونى ، لينتظموا فى الموكب الملكي العظيم الذى يغادر القصر حين الضحى .

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجاب ، وحياهم باسم الملك ، وقال بصوت جهورى :

— أيها السادة الأجلاء ، إن فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال ، فتفضلوا بالذهاب إلى البهو الفرعونى .

وتلقى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية . لأن العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك ، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم : ترى أى أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد ؟!.

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين ، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذى الجلال والروعة . واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن ، وجلس الحكام قبالتهم ، وكان يتصدر المكان العرش الفرعونى ، وسط جناحين من الكراسى أعدت للأمراء والوزراء .

وما لبثوا قليلا حتى دخل الوزراء يتقدمهم سوفخاتب ، وتبعهم بعد حين

أمراء البيت المالك ، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم .

وساد الصمت وبدا الجد والاهتمام على الوجوه ، وخلا كل إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التى دعت إلى هذا الاجتماع الهام ، حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام ، فتطلعوا إليه فى انتباه شامل ، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن مجىء الملك :

ــ فرعون مصر نور الشمس ، وظل رع على الأرض ، صاحب الجلالة مرنرع الثانى ..

فهب الجميع وقوفا وأحنوا الهامات ، حتى كادت تمس الأرض الجباه ، وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة ، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو ، وحامل الأختام ، وكبير حجاب الأمير كارفنرو حاكم النوبة ، وجلس على العرش ، ثم قال بصوت مهيب :

ــ أحييكم أيها الكهنة والحكام وآذن لكم بالجلوس .

فاعتدلت القامات المنحنية فى رفق ، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة ، واتجهت الأنظار إلى صاحب العرش تواقة إلى استماع كلمته . واعتدل الملك فى جلسته ، ثم قال وهو يقلب عينيه فى وجوه القوم دون أن تستقر على أحد :

ــ أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام ، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى ، لقد دعوتكم لأشاوركم فى أمر خطير يتعلق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد . أيها السادة : لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفنرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه ، فرأيت أن واجبى يقضى علىّ بأن أدعوكم دون إمهال ، للاطلاع عليها ، والمشاورة فى محتوياتها الخطيرة .

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه ، فتقدم الرجل خطوتين فصار فى حذاء العرش ، وقال له فرعون :

— « اتل عليهم الرسالة » .

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه ، وقرأ بصوت جهورى مؤثر :

— « من الأمير كارفنرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر نور الشمس المشرقة ، وظل الرب رع ، حامى النيل ، وصاحب النوبة ، وطور سيناء ، وسيد الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية .

مولاى .. يؤسفنى أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء محزنة ، عن حوادث غدر شائنة ، وقعت فى أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية ، وكنت يا مولاى — اطمئنانا منى إلى المعاهدة التى عقدت بين مصر وقبائل المعصايو ، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن — كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة فى الصحراء إلى قواعدها الأصلية . وجاءنى اليوم ضابط من رجل الحاميات وأخبرنى بأن زعماء القبائل شقوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم ، وانقضوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات ، وأعملوا فيها التقتيل الوحشى . وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس ، قوات تفوقهم مائة مرة أو يزيد ، حتى سقطوا عن آخرهم فى ميدان الاستبسال . واجتاحت القبائل البلاد جميعا ، واتجهت نحو الشمال إلى بلاد النوبة ، فرأيت من الحكمة ألا أفرط فيما لدى من قوات محدودة ، وأن أوجه همى إلى تحصين الاستحكامات والقلاع ، للتمكن من صد العدو الزاحف ، ولن تصل مولاى رسالتى حتى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين ، وإنى فى انتظار أمر مولاى سأظل على رأس جنودى أقاتل فى سبيل مولاى فرعون . ووطنى مصر » .

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة ، وظل صوته يدوى فى كثير من القلوب ، أما الحكام فقد اتقدت أعينهم ، وتطاير منها الشرر ، وسرت فى صفوفهم حركة اضطراب عنيف ، وأما الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم ، وانقلبوا كتماثيل جامدة فى معبد صامت .

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثر أشده ، ثم قال :

ـــ هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، فقام واقفا وأحنى رأسه تحية ، وقال :

ـــ مولاى .. إنها رسالة خطيرة حقا ، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة .

ولاقت كلمته ارتياحا فى نفوس الحكام ، فقام حاكم أمبوس وقال :

ـــ نعم الرأى يا مولاى ، فالجواب الأوحد هو التعبئة السريعة ، كيف لا ووراء الحدود الجنوبية إخوان لنا بواسل أوقعهم العدو فى ضيق .. وإنهم لثابتون ، فلا ينبغى أن نخذلهم ، أو نبطئ عليهم ..

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته ، فقال :

ـــ إذا اجتاح أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شك .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، وقد ذكر رأيا قديما له طالما تمنى تحقيقه يوما ، فقال :

ـــ كان رأيى دائما يا مولاى أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير ، يكفل لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود .

واشتد الحماس فى جناح جميع القواد ، ونادى كثير منهم بالتعبئة ، وهتف آخرون للأمير كارفنرو ولحامية بلاد النوبة . واشتد التأثر ببعض الحكام ، فقالوا

للملك :

ـــ مولانا .. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد ، ووراءنا إخوان بواسل يتهددهم الموت . إيذن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود .

وكان فرعون ملازما الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة ، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس ، فلما أن سكت الحكام .. قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب :

ـــ هل يأذن لى مولاى فى أن أوجه إلى رسول سمو الأمير كارفنرو سؤالا .

فقال الملك بغرابة :

ـــ لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر .

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال :

ـــ متى غادرت بلاد النوبة ؟

فقال الرجل :

ـــ منذ أسبوعين .

ـــ ومتى بلغت آبو ؟

ـــ مساء أمس .

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال :

ـــ أيها الملك المعبود ، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة ، فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو ، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون ، ويرفعون إلى أعتابه المقدسة آى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام ، فما أشد حاجتنا إلى من يميط اللثام عن هذه المعميات .

فكان تصريحا غريبا لم يتوقعه إنسان ، فأحدث دهشة كبرى وعجبا ،

فشملت الرءوس حركة عنيفة ، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة ، وتهامس الأمراء . أما سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه فى ارتياع ، فرآه يقبض على الصولجان بشدة ، وتشد عليه بقسوة حتى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه ، فخشى الرجل من تسلط الغضب على الملك ، فسأل الكاهن قائلا :

— ومن أنبأك بهذا يا صاحب القداسة ؟

فقال الرجل بهدوء :

— رأيتهم بعينىّ رأسى يا سيدى الرئيس ، فقد زرت أمس معبد سوتيس ، وقدم كاهنه إلىّ وفدا من السود قالوا أنهم من زعماء المعصايو ، وأنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون ، وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه .

فقال سوفخاتب :

— ألا يصح أن يكونوا من النوبة ؟

ولكن الرجل قال بيقين :

— قالوا إنهم من المعصايو ، وعلى أية حال فها هنا رجل — هو القائد طاهو — اشتبك مع المعصايو فى حروب كثيرة ، وعرف جميع زعمائهم ، فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدسة ، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة ؟.

وكان الملك فى حالة شديدة من القهر والغضب ، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن ، وأحس الوجوه تتطلع إليه فى لهفة ورغبة ورجاء ، فقال لأحد الحجاب !

— اذهب إلى معبد سوتيس ، وادع زعماء السود .

وصدع الحاجب بالأمر ، ولبث الجميع ينتظرون وكأن على رءوسهم

الطير . وكان الذهول باديا على وجوه الجميع . وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ود كل منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه . ولبث سوفخاتب قلقاً مهموما دائم التفكير يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة ، ومرت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلمة ، كأنما تنتزع من جلودهم ، والملك على عرشه يشاهد الحكام القلقين والكهنة المطرقين ، لا تكاد تخفى عيناه ما يعترك فى نفسه من العواطف . ثم خال الجميع أنهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد ، فخلصوا من نفوسهم ، وأرهفوا السمع ، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر ، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف ، ومضت بالقرب تشتد وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق . وكانت مختلطة غير متمايزة ، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل ، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هنالك ، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا ، ومال على أذن فرعون وقال :

— إن جموع الشعب تملأ الميدان ، تحيط بالعربات التى تحمل زعماء السود .

— وما هتافهم ؟

— يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين ، ومعاهدة السلام .

ثم تردد الرجل لحظة واستدرك هامسا :

— ويهتفون يا مولاى لصاحب المعاهدة خنوم حتب !

واصفر وجه الملك من الغضب ، وأحس بالحقد والقهر ، وتساءل كيف يدعو الشعب الذى يحيى زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو !! ولبث ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا .

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء ، وفتح الباب على مصراعيه ، ودخل الوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة ، ضخام الأجسام ، عرايا إلا من وزرة تستر

الوسط ، وعلى رءوسهم هالات من أوراق الشجر ، وقد سجدوا جميعا على الأرض ، وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش ، فقبلوا الأرض بين يدى فرعون ، ومد لهم الملك صولجانه فلثموه فى خشوع ، وأذن لهم الملك بالوقوف فوقفوا فى تهيب ، وقال رئيسهم باللهجة المصرية :

ـــ أيها الرب المعبود ، فرعون مصر ، وسيد الوادى . ومعبود القبائل ، جئنا إلى رحابك لنقدم لك آى الخضوع والذل والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم . فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا ، وشربنا الماء حلوا سائغا .

فباركهم الملك برفع يده .

وكانت الوجوه متجهة إليه كأنما تضرع إليه أن يسألهم عما يقال عن بلادهم ، فقال الملك المقهور :

ـــ من أى العشائر أنتم ؟

فقال الرجل :

ـــ أيها البهاء المعبود ، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد .

وصمت الملك قليلا ، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا ، وضاق بالمكان وبمن فيه ، فقال :

ـــ إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم .

وقدم صولجانه فلثموه مرة أخرى ، وكروا راجعين ، تكاد تمس الأرض جباههم .

والتهب الغضب فى قلب الملك ، وأحس إحساسا باطنيا أليما بأن الكهنة الماثلين أمامه ، وجهوا إليه ضربة قاتلة فى معركة خفية ، لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق . وفاض به الغيظ ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات :

ـــ لدى رسالة لا يرتقى الشك إليها ، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أو لا تتبعهم ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمردون ، وأن جنودنا الآن محاصرون ! !

فعاودت الحماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :

ـــ مولاى .. لقد جرت الحكمة الإلـٰهية على لسانك ، إن إخواننا ينتظرون النجدة . فلا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشات ، والحق أبلج واضح .

فقال الملك بعنف :

ـــ أيها الحكام ، إنى أعفيكم من الاشتراك اليوم فى الاحتفال بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى . ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا الجند ، فرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم قام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات إجلالا .

الهتاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاص ، ودعا إليه رجليه المخلصين سوفخاتب وطاهو . فلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدى التأثر ، يقدران حرج الموقف حق قدره . ووجدا الملك كما توقعا مهتاجا غاضبا ، يذرع حجرته من جانب إلى جانب ، ويهدر بوحشية ، فلما انتبه إليهما حدجهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـــ خيانة .. إنى أشم رائحة خيانة خبيثة فى هذا الجو الخانق .

فانكفأ طاهو وقال :

ـــ مولاى . لا أنفى عن نفسى التشاؤم وسوء الظن ، ولكن لا يذهب بى الحدس إلى هذا الفرض الكبير .

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :

ـــ لماذا جاء هذا الوفد اللعين ؟.. بل كيف جاء اليوم ؟.. واليوم بالذات ؟.

فقال سوفخاتب ، وكان غارقا فى التفكير والأحزان :

ـــ ترى هل هى مصادفة حزينة غريبة ؟

فقال الملك فى دهشة مروعة :

ـــ مصادفة .. كلا .. كلا . هى الخيانة اللئيمة ، أكاد ألمح وجهها يستتر بالإطراق والدهاء . كلا أيها الوزير لم يجىء القوم مصادفة لكنهم دفعوا إلى هنا عمدا ليقولوا سلاما إذا ما قلت أنا حربا ، وهكذا وجه إلىّ عدوى ضربة شديدة ، وهو ماثل بين يدىّ يعلن الولاء ..

فامتقع وجه طاعو ولاح فى وجهه الحزن ، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق يائسا وكأنه يحادث نفسه :

ـــ إذا كانت خيانة فمن الخائن ؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته فى الهواء :

ـــ نعم .. من الخائن .. هل هنالك معضلة لا تحل .. كلا .. أنا لا أخون نفسى ، ولا يخون عهدى سوفخاتب ولا طاهو ، ولا تخوننى رادوبيس ، فلم يبق إلا هذا الرسول الشقى .. واأسفاه لقد خدعت رادوبيس .

فبرقت عينا طاهو وقال :

ـــ سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهز الملك رأسه وقال :

ـــ رويدك يا طاهو رويدك .. إن المجرم لا ينتظرك حتى تذهب للقبض عليه ، ولعله الآن ينعم بثمن خيانته فى مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة . كيف تمت المكيدة ؟. لا أدرى كيف ، ولكنى أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا بالرسالة قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا ، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولى بالرسالة ، وجاء رسولهم بالوفد .. خيانة .. نذالة ، إنى أعيش وسط شعبى كالأسير .. ألا لعنة الآلهة على الدنيا وعلى الناس .

ولاذ الرجلان بالصمت ، حزنا وإشفاقا ، وكان طاهو يختلس من مولاه نظرات حزينة ، وأراد أن يحاول إعادة الأمل إلى ذلك الجو القاتم فقال :

ـــ ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلا :

ـــ كيف لنا بتسديد هذه الضربة ؟!.

ـــ إن الحكام فى طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود .

ـــ وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفى الأيدى بإزاء الجيش الذين علموا أنه يحشد لسحقهم؟!

وكان سوفخاتب ينوء بهم ثقيل كان يؤمن بما يقول الملك ، ولكن أراد أن ينفس عن صدره ، فقال وكأنه يتمنى :

ـــ عسى أن يكون ريبنا وهما ، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة ، فتنقشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب .

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال :

ـــ لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين ، كانوا بلا شك ينطوون على سر رهيب ، ولما قام رئيسهم ليتكلم ، تحدى حماس الحكام باطمئنان ، وألقى كلمته بثقة لا حد لها ، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة ، آه .. الويل للخيانة .. لن يعيش مرنرع الثانى تحت رحمة الكهنة .

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال :

ـــ مولاى .. تحت إمرتك حرس قوى البنيان يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم ، ويجود بنفسه فى سبيل مولاه عن طيب خاطر .

فأعرض فرعون عنه ، وارتمى على مقعد وثير مستسلما لأفكار رأسه الساخن ، ترى هل يمكن أن يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحزان ؟. أم يفشل مشروعه إلى الأبد ؟. يا لها من ساعة فاصلة فى حياته .. هى مفترق الطرق بين المجد والهوان ، والقوة والانهيار ، والحب والشقاء . لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضى حيلة ، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى التنازل عنها محافظة على عرشه ؟ آه .. لن يأتى هذا اليوم ، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدا : وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا . وتنهد بالرغم منه حسرة ، وقال لنفسه آسفا .. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة . وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول :

ـــ مولاى دنا موعد الحفل .

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق ، وتمتم « حقا » ثم قام واقفا وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء القصر العظيم ـــ وقوة العجلات متراصة به فى الانتظار ـــ وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين ، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه ، ثم دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة ، ورجع لابسا جلد النمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج . وتأهبوا جميعا للخروج ، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيا مولاه وقال :

ـــ السيد طام رئيس شرطة آبو يستأذن فى المثول بين يدى مولاه .

فأذن له الملك ومشيراه لما شاهدوه على وجهه من آى الاضطراب . وحيا الشرطى الكبير مولاه ، وقال مبادرا بعجلة واضطراب :

ـــ مولاى ! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل !

فخفق قلب الرجلين ، وسأل الملك منزعجا :

ـــ وما الذى حملك على هذا ؟

فقال الرجل وهو يلهث :

ـــ قبضت فى هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة إلى شخصية نبيلة يكرمها مولاى وأخشى أن تكرر هذه الهتافات فى أثناء الموكب .

فخفق قلب الملك وغلت مراجل الغضب فى دمه ، وسأله بصوت متهدج :

ـــ ماذا قالوا ؟.

فابتلع الرجل ريقه ، وقال باضطراب وارتباك :

ـــ قالوا لتسقط العاهرة ! لتسقط ناهبة المعابد !!.

فاشتد الغضب بالملك ، وصاح بصوت كالرعد :

ــ يا للويل .. لابد أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى أو ينفجر بنيانى .

واستطرد الرجل مذعورا :

ــ وقد قاوم المجرمون رجالى ، فوقعت معارك بيننا وبينهم ، وساد الاضطراب والهرج برهة ، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا .

فسأل الملك قائلا وهو يصر على أسنانه غضبا ومقتا :

ــ وماذا قالوا أيضا ؟

فأحنى الرجل رأسه ، وقال بصوت خافت :

ــ تجاسر المجرمون على ما هو أجل .

فقال الملك فى صوت ذاهل :

ــ أنا ..!؟

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجه ، ولم يتمالك سوفخاتب نفسه فصاح :

ــ كيف يمكن أن أصدق أذنى ؟

وصاح طاهو بغضب :

ــ هذا جنون لا يعقل .

وضحك فرعون ضحكة عصبية ، وقال بسخرية مريرة :

ــ كيف ذكرنى شعبى يا طام ؟.. تكلم إنى آمرك .

فقال الرجل :

ــ قال الأوغاد .. « ملكنا يلهو » .. « نريد ملكا جادا » .

فضحك الملك ضحكة كالأولى ، وقال متهكما :

ــ واأسفاه .. ما عاد مرنرع يصلح لعرش الكهنة !..وماذا قالوا أيضا يا طام ؟.

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

ــ وهتفوا يا مولاى طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتو قريس !.

فلاح بريق خاطف بعينى الملك ، وردد اسم نيتو قريس بين شفتيه بصوت خافت كأنما يذكر شيئا قديما طال به عهد النسيان ، وتبادل المشيران نظرة الدهشة ، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتحرج رئيس الشرطة ، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثا مريرا ، وإن سأل نفسه حيرة : ترى ما عسى أن يكون شعور الملكة حيال هذه الهتافات .. واشتد الضيق بصدره ، وأحس بموجة عنيفة من الغضب والتمرد والاستهتار ، فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلا بخشونة :

ــ هل حان موعد الذهاب ؟

فقال طام بذهول :

ــ ألن يعدل مولاى عن الذهاب ؟

فقال الملك بعنف :

ــ ألا تسمعنى أيها الوزير ؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع :

ــ بعد برهة قصيرة يا مولاى .. حسبت مولاى سيعدل عن الذهاب ؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة :

ــ سأذهب إلى معبد النيل خلل الجموع الساخطة ، وسنرى ما يكون .. عد يا طام إلى واجبك .

الأمـل والســم

وكانت رادوبيس فى صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى الديوان الوثير تحلم ، كان يوما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم . فأى سعادة وأى فرح . كان صدرها فى ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى معطر ، تنبت على حفافيها الأزهار وتغنى فى جوها البلابل شادية نشوى .. فيا لدنيا الأفراح ؛ ومتى تتلقى نبأ الفوز ؟.. حين الأصيل ، حين تبدأ الشمس رحلتها إلى العالم الثانى ويشرع قلبها فى رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال الحبيب ، فيالساعة الأصيل ! ساعة الأصيل هى ساعة الحبيب ، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه الغض ، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق ، يناجى اسمها العذب ، يبشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام ، وتفرق الحكام ليحشدوا الجنود ، فهنيئا لحبنا . آه ما أجمل الأصيل ...

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار ينقضى ؟.. لقد انتظرت عودة الرسول شهرا انطوى ثقيلا مرهقا ، ولكنها تخال هذه الساعات المعدودات أشد وطأة وأكبر كلفة ، على أنه قلق يخالط طمأنينة ، وخوف يمازج سعادة .. وكأنما أرادت أن تتناسى الانتظار لتتغفل الزمن ، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتى عثرت فى شرودها بالعاشق الجاثى فى معبده .. فى الحجرة الصيفية ، بنامون ابن بسار ، ما أرقه وأخف ظله ، كانت تساءلت مرة أخرى حيرى كيف تجزيه على ما أدى لها من خدمة جليلة ، وقد طار على جناحى يمامة إلى أقصى الجنوب ، وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق ... بل همست مرة فى

ارتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه ؟. ولكنه علمها بقناعته أن من الحب حبا عجيبا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالأحلام والأوهام . فيا له من شاب حالم بعيد عن الدنيا . ولو أنه طمع فى قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماه ، دون أن تمد له فمها ، ولكنه لا يطمع فى شىء ، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض . أو لعله لا يصدق أنها شىء يلمس ويقبل . إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الإنسان ، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة فى السموات .

وتنهدت وقالت : حقا إن الحب عالم عجيب ، أما حبها فينبع متدفقا من صميم الحياة ، فالقوة التى تجذبها إلى مولاها هى قوة الحياة الكاملة الرهيبة ، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة ، ويضل فى آفاق سامية ، لا يعلن عن أثر محسوس إلا فى يده الماهرة ، وأحيانا فى لسانه الملعثم الحار .. فيا له من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام ، ويقوى من ناحية أخرى فيبث فى الصخر الأصم حياة .. فكيف تفكر فى التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا ، فلتتركه فى معبده آمنا ، يصور فى جدرانه الصامتة أجمل التهاويل التى تكتنف وجهها الجميل .

وعادت تهتف من أعماق صدرها : متى الأصيل ؟ سحقا لشيث لو لبثت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها ، ولكنها أبت ألا أن تذهب إلى آبو لمشاهدة عيد النيل ..

يا ما أجمل الذكريات ! ذكرت العيد الماضى ، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب ، ولما وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهى لا تدرى ، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء ، فحسبته قلقا غاضبا أو نفثة ساحر ، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها !، ولم

يكد يبدأ اليوم الثانى حتى زارها فرعون . ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا .

أما العام الثانى فها هى تقبع فى قصرها ، والدنيا تقصف وتلهو فى الخارج ، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تبق رادوبيس الغانية الراقصة ، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق ، وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همها فتساءلت : ترى ماذا حدث فى الاجتماع الخطير الذى قال مولاها أنه سيدعو إليه ليقرأ عليه الرسالة .. هل التأم وابى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن ؟. أواه .. متى يأتى الأصيل ..

وملت الجلسة ، فقامت تتمشى ، ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة تسرح الطرف فى آفاقها المنفسحة . ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب ، فالتفتت متضايقة برمة ، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض ، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل ، فوجب قلبها ، وطالعها نذير شؤم ، وسألتها فى إشفاق :

ــ مالك يا شيث ؟

وهمت الجارية أن تتكلم ، فغلبها البكاء ، فجثت على ركبتيها أمام مولاتها ، وشبكت يديها على صدرها ، وأفحمت فى البكاء بحالة عصبية شديدة ، فاستولى الانزعاج على رادوبيس وصاحت بها :

ــ مالك يا شيث ؟.. بالله تكلمى ، ولا تتركينى فريسة الحيرة ، فإن لى آمالا أخاف عليها الوساوس .

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا ، وشهقت شهقة عنيفة ، ثم قالت بصوت باك :

ــ مولاتى .. مولاتى .. إنهم هائجون ثائرون !

ــ من الهائجون الثائرون ؟

ــ الناس يا مولاتى .. إنهم يصرخون فى غضب جنونى ، مزقت الأرباب ألسنتهم .

فخفق قلبها مفزوعا وقالت بصوت متهدج :

ــ ماذا يقولون يا شيث ؟

ــ آه يا مولاتى .. إنهم قوم مجانين تهذى ألسنتهم المسمومة هذيانا مخيفا .

فكادت المرأة تجن فزعا ، وصاحت بحدة :

ــ لا تعذبينى يا شيث ! صارحينى بما قالوا .. رباه .

ــ مولاتى إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل .. ماذا فعلت يا مولاتى حتى تستحقى غضبهم ؟

فضمت رادوبيس يدها إلى صدرها ، وقد اتسعت عيناها ذعرا ، وقالت بصوت متقطع :

ــ أنا .. أيغضب الناس علىّ أنا .. ألم يجدوا فى هذا اليوم المقدس ما يشغلهم عنى .. رباه .. ماذا قالوا يا شيث .. أصدقينى رحمة بى .

فقالت المرأة وهى تبكى بكاء مرا :

ــ تصايح المجانين يا مولاتى بأنك تنهبين مال الأرباب .

فتنهدت من صدر مكلوم ، وتمتمت بحزن :

ــ أواه .. إن قلبى ينخلع ويتوجس خيفة ، وأخوف ما أخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب . أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عنى إكراما لمولاهم ؟

فصكت الجارية صدرها بيدها ، وولولت قائلة :

ــ إن مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم .

وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة ، وأحست برجفة تزلزل نفسها ، وقالت :

ــ ماذا تقولين ؟.. هل تجاسروا على مس فرعون ؟

فقالت المرأة الباكية :

ــ نعم يا مولاتى واأسفاه .. قالوا فرعون يلهو . نريد ملكا جادا .

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث ، وتلوى جسمها من شدة الألم ، وارتمت بيأس على الديوان ، وهى تقول :

ــ رباه .. أى هول هذا .. كيف لا تزلزل الأرض . وتندك الجبال ! كيف لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا !

فقالت الجارية :

ــ إنها تزلزل يا مولاتى زلزالا شديدا. فالقوم مشتبكون فى قتال عنيف مع الشرطة، والدماء تسيل وتنفجر.. وكادت تطؤنى الأقدام، ففررت لا ألوى على شىء ، وانحدرت فى قارب إلى الجزيرة ، وما كان أشد انزعاجى إذ وجدت النيل يموج بالسفن ، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون ، وكأنهم جميعا على ميعاد .

وغشيها خور ، وطغت عليها موجة يأس خانق ، أغرقت آمالها الصارخة بغير رحمة . وجعلت تساءل نفسها المحزونة : ترى ماذا حدث فى آبو ؟ وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة ، وما الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه ، وهل يقدر للرسالة الفشل ويقضى على أملها بالموت ؟ الجو مغبر كالح ، تتطاير فيه نذر شر مستطير ، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة ، إن الخوف القاتل يجثم عليه كقطعة من الزمهرير ، وقد قالت بصوت كالبكاء :

ــ العون أيتها الأرباب .. هل يظهر مولاى لهذا الشعب الهائج ؟.

فقالت شيث تطمئنها :

— كلا يا مولاتى .. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه بالثائرين .

— رباه .. أنت لا تعرفين من هو يا شيث .. إن سيدى غضوب لا يتقهقر أبدا ، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث . لابد أن أراه الآن .

فارتجفت الجارية رعبا وقالت :

— هذا مستحيل .. فالسفن الغاصة بالهائجين تغطى سطح الماء ، وحرس الجزيرة متجمع على الشاطئ .

فشدت على رأسها وصاحت :

— ما بال الدنيا تضيق فى وجهى ، والأبواب تسد علىّ ؟ إنى أتردى فى بئر ضيقة من اليأس ، آه يا حبيبى .. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك ؟..

فقالت شيث تخفف عنها :

— صبرا يا مولاتى ، ستنقشع هذه السحابة القاتمة .

— يمزق قلبى إربا أن أشعر بأنه يتألم . آه يا سيدى وحبيبى ! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات فى آبو !؟

وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة ، ودهشت شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحب والنعيم والترف تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس ، وفكرت فى غيبوبة الحزن التى غشيتها فيما آلت إليه آمالها التى كانت مشرقة منذ قليل ، وأحس قلبها ببرودة اليأس ، وتساءلت خائفة مذعورة : هل يمكن أن يرغموا مولاها فيفقدوه سعادته وكبرياءه أو أن يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم ؟ إن الحياة لا تطاق مع تحقيق أى من هذه الوساوس ، والخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها ، فإما أن تعيش رادوبيس التى حالفها الحب والمجد وإما أن تموت .

وفكرت فى أمرها طويلا حتى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان ، فاستولى عليها اهتمام شديد ، وقامت من فورتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها ، وقالت لشيث : إنها ستتحدث إلى بنامون فى بعض الشئون . وكان الشاب منهمكا فى عمله كعادته ، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحدثان . ولما أحس بها أقبل نحوها فرحا ، ولكنه سرعان ما وجم وقال :

ـــ وحق هذا الحسن الإلـٰهى إنك حزينة اليوم .

فقالت وهى تخفض ناظريها :

ـــ بل تعبة فقط أو كالمريضة .

ـــ الجو شديد الحرارة ، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة ؟

فقالت باقتضاب :

ـــ جئتك برجاء يا بنامون .

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك .

فقالت :

ـــ أتذكر يا بنامون أنك حدثتنى يوما عن السموم العجيبة التى ركبها أبوك ؟.

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة :

ـــ نعم أذكر ذلك بغير ريب !

ـــ بنامون ، أريد قارورة من هذا السم العجيب ، الذى أطلق عليه أبوك السم السعيد .

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا :

ـــ ولِمَ ؟

فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت :

ـــ لقد حدثت أحد الأطباء فأبدى اهتماما بشأنه ، وطلب إلىّ أن أوافيه بقارورة منه ، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه ، فوعدته يا بنامون ، فهل تعدنى بدورك أن تحضرها لى فى أقرب وقت ؟

فقال الشاب بسرور ، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء :

ـــ ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل .

ـــ كيف ؟ ألا ينبغى أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها ؟

ـــ كلا .. لدى قارورة فى مسكنى بآبو .

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها ، ورمقته بنظرة دهشة ، فخفض عينيه وقد تخضب وجهه احمرارا وقال بصوت خافت :

ـــ أحضرتها فى تلك الأيام الأليمة ، حين كدت أشفى من حبى على اليأس ، ولولا ما أبديت بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس !

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة ؛ أما هى فهزت كتفيها استهانة وقالت وهى تهم بالمسير :

ـــ قد ألوذ بها مما هو شر منها !!

سهـم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه ، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف ، وظل الرجلان واقفين ممتقعى الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته ، فقال بتوسل :

— أضرع إليك يا مولاى أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد .

ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة ، فقطب جبينه غضبا وقال :

— أأفر لدى أول هتاف ؟

فقال الوزير :

— مولاى إن القوم هائجون غاضبون ، فينبغى التروى .

— يحدثنى قلبى بأن خطتنا سائرة إلى الفشل المحتوم ، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيبتى إلى الأبد .

— وغضب الشعب يا مولاى ؟

— سيهدأ ويسكن إذا رآنى أشق صفوفه على عجلتى كالمسلة الشامخة ، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع .

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد التأثر ، فسكت سوفخاتب وهو كظيم ، وعطف ناظريه إلى طاهو وكأنه يستغيث به . ولكن القائد كان غارقا فى الهموم كما بدا من امتقاع وجهه ، وشرود نظرته ، وثقل أجفانه . فشملهم صمت عميق ، ولم يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك .

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب ، وكان متسرعا مضطربا ، فانحنى

للملك ، وقال :

ـــ ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاى فى المثول بين يديك .

فأذن له الملك ، وحدج رجليه بنظرة يفحص بها أثر قول الحاجب فى نفسيهما . فوجدهما قلقين مضطربين . فعلت فمه ابتسامة ساخرة ، وهز كتفيه العريضتين استهانة . ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب ، وكانت ثيابه معفرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشر ، فأدى التحية ، وقال قبل أن يؤذن له فى الكلام :

ـــ مولاى !. إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة فى قتال عنيف ، وقد قتل من الجانبين رجال كثيرون ، ولكن سيقتحمنا القوم إذا لم تصلنا نجدات قوية من الحرس الفرعونى .

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعا ، ونظرا إلى فرعون فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب ، وقد صاح بصوت أجش :

ـــ وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد .

فاستدرك الضابط قائلا :

ـــ وقد آذنتنا العيون يا مولاى أن الكهنة يخطبون الناس فى أطراف المدينة زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب وهمية فى الجنوب ليحشد جيشا يذل به الشعب ، والناس تصدقهم ويشتد بهم الغضب ، ولولا وقوف الشرطة فى وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر المقدس .

فصاح فرعون كالرعد :

ـــ قطع الشك باليقين ، وافتضحت الخيانة اللئيمة ، وها هم أولاء يعلنون العداوة ويبدأوننا بالهجوم !

ووقع الكلام من الآذان موقعا غريبا لا يصدق ، وبدا على الوجوه كأنها

تتساءل فى دهشة وإنكار : أحقا أن هذا فرعون ؟ وهذا شعب مصر ؟.. ولم يطق طاهو صبرا . فقال لمولاه :

ـــ مولاى ! هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية فى دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء ، والرب أعلم كيف يكون منتهاه ، فمرنى أن أقوم بواجبى .

فسأله فرعون :

ـــ وماذا أنت فاعل يا طاهو ؟

ـــ سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة ، وأقود فرقة العجلات لملاقاة الثائرين ، قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر .

فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليا ، ثم قال بصوت رهيب :

ـــ سأقودها بنفسى .

فانخلع قلب سوفخاتب فى صدره ، وصاح بالرغم منه :

ـــ مولاى!

فضرب الملك صدره بيديه بعنف ، وقال :

ـــ ما زال هذا القصر حصنا ومعبدا منذ آلاف السنين ، ولن يصير على عهدى هدفا رخيصا لكل متمرد .

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء ، وأسرع إلى مخدعه ليرتدى لباسه الحربى . وفقد سوفخاتب اتزانه ، وتوجس خيفة وشرا ، فالتفت إلى طاهو ، وقال بلهجة الآمر :

ـــ أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه ، فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ، وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطى ، ولبث الوزير ينتظر الملك .

ولكن الحادثات لم تنتظر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة ، وما زالت

تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلة على فناء القصر وألقى بناظريه إلى الميدان ، فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى . كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلا رءوسا عارية وسلاحا لامعا . فأحس الوزير بالفزع ونظر إلى أسفل ، فرأى العبيد فى حركة سريعة يثبتون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط فى الأمام على الجانبين الشمالى والجنوبى ، واندفعت قوات عظيمة منهم إلى ممر الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسى ، أما العجلات ، فقد ارتدت إلى الوراء ، واصطفت صفين طويلين تحت الشرفة استعدادا للانطلاق فى الفناء إذا اقتحم الباب الخارجى .

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت إلى الوراء ، فرأى فرعون واقفا على عتبة الشرفة فى ثياب القيادة العليا ، على رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شررا متطايرا ، والغضب مرتسما على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول حانقا مغيظا :

— حوصرنا قبل أن نبدى حراكا !

فقال سوفخاتب :

— القصر يا مولاى قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنها جنود جبابرة ، وسيرتد الكهنة مهزومين .

وجمد الملك فى مكانه ، وتراجع الوزير وراءه ، وجعلا ينظران فى صمت محزن إلى الجموع التى لا يحصيها العد ، وهى تهدر كالوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات كالرعد : « العرش لنيتوقريس » ، « ليسقط الملك العابث » . وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ،

فتستقر فى المقاتل ، ورد الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام .

وهز فرعون رأسه ، وقال :

ـــ مرحى ... مرحى ... أيها الشعب الكاسر الذى جاء لخلع الملك العابث ، ما هذا الغضب ، ما هذه الثورة . لماذا تهدد بهذا السلاح ، أتريد حقا أن تغمده فى قلبى ؟.. مرحى .. مرحى .. إنه لمنظر حقيق بأن يخلد على جدران المعابد .. مرحى مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة ، ويطلقون السهام كالمطر ، فإذا سقط منهم قتيل حل مكانه غيره مستهينا بالموت ، والقواد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال .

وإنه ليشاهد هذه المناظر الأليمة ، إذ سمع صوتا يعرفه حق المعرفة يقول :

ـــ مولاى .

فالتفت إلى الوراء مدهوشا ، فرأى الذى يناديه على قيد خطوتين ، فقال بعجب :

ـــ نيتو قريس !

فقالت الملكة بصوت حزين :

ـــ نعم يا مولاى ، لقد صك أذنى صراخ بشع لم يسمع من قبل فى هذا الوادى ، فجئت ساعية إليك لأعلن ولائى ، وأشاطرك المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها ، فتقهقر سوفخاتب إلى الخارج . وبادر الملك إلى معصميها ورفعها من ركعتها ، ونظر إليها بعينين مرتبكتين . ولم يكن رآها من اليوم الذى جاءت فيه إلى جناحه وردها أسوأ رد ، فاشتد به الحرج والألم ، على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه إلى ما كان

عليه ، فقال لها :

ــ شكرا لك أيتها الأخت ، تعالى انظرى إلى شعبى ، إنه يحيينى فى يوم العيد .

فخفضت عينيها ، وقالت فى حزن عميق :

ــ كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضبا وسخطا وازدراء ، وقال بلهجة تنطوى على الاشمئزاز :

ــ بلد مجنون ، جو خانق ، قلوب ملوثة .. خيانة .. خيانة .. خيانة ..

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عيناها من الذعر ، وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظن ؟.. وهل يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على أسقامه ، وجاءت طوعا إلى من أهانها وأشقاها ؟.. وهالها الأمر ، فقالت :

ــ واأسفاه يا مولاى ، ليس فى وسعى إلا أن أشاطرك المصير ، ولكنى أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة ؟!

ــ الخائن رسول ائتمنته على رسالة ، فسلمها إلى عدوى ؟!

فقالت الملكة بلهجة استغراب :

ــ لا علم لى بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت يتسع لإنبائى ، وما أتمنى عليك من شىء إلا أن أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذى يهتف لى ليعلم أنى أواليك ، وإنى أعادى من يعاديك .

ــ شكرا لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما علىّ إلا أن أستعد لموت شريف .

ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا إلى الحجرة الفاخرة ، وكان يطالع الداخل محراب منحوت فى الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقتين ، فاتجه الملكان إلى تمثالى والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر إلى تمثال والديه :

ــ ترى ما رأيكما فىّ ؟!

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعاوده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :

ــ لقد أورثتنى ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟ لم يكد يمضى عام على توليتى حتى شارفت الدمار ، واأسفاه لقد أذللت عرشى موطئا للنعال ، وجعلت اسمى مضغة للأفواه ، واكتسبت لنفسى اسما جديدا لم يطلق على فرعون من قبل : هو الملك العابث .

وانحنى رأس الملك الشاب مثقلا حزينا ، ولبث ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما إلى تمثال والده ، وتمتم :

ــ لعلك وجدت فى حياتى ما أخجلك ، ولكنك لن تخجل من موتى أبدا !

والتفت إلى الملكة ، وقال لها :

ــ هل تغفرين إساءتى يا نيتو قريس ؟

وكان التأثر قد بلغ منها مبلغا عظيما ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :

ــ لقد نسيت همومى فى هذه الساعة .

فقال بانفعال شديد :

ــ طالما أسأت إليك يا نيتوقريس ، لقد تطاولت على كبريائك ، وظلمتك

وجعلت حماقتى من سيرتك أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة . كيف حدث هذا ؟.. وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذى تنصب فيه حياتى ... لقد غمرتنى الحياة وتولانى جنون عجيب ، ولا أستطيع حتى فى هذه الساعة أن أعلن ندمى ، واأسفاه إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لى أنه لا يقدر على تلافيهما . هل رأيت أفدح من هذه المأساة التى أردها ؟.. ومع هذا فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية ، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الناس . بل لو بدأت حياتى من جديد لما تجنبت الوقوع من أخرى ، أيتها الأخت .. لقد ضاقت نفسى بكل شىء ، وما من فائدة ترجى . فالخير أن أستحث النهاية .

وبدا على وجهه العزم والاستهتار ، فسألته حائرة قلقة :

ـــ أى نهاية يا مولاى ؟

فقال بحدة :

ـــ لست نذلا لئيما ، وأستطيع أن أذكر واجبى من بعد طول النسيان . ما جدوى القتال ؟.. سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد ، وسيأتى دورى حتما بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى ، ولست جبانا رعديدا يلوذ بأهداب الحياة قابضا على خيط واه من الأمل ، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسى .

فارتاعت الملكة وقالت :

ـــ مولاى .. أتحمل ضمير رجالك وزر التخلى عن الدفاع عنك ؟..

ـــ بل لا أريد أن أضحى بهم عبثا ، وسألقى عدوى وحيدا لنصفى حسابنا معا .

فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فيئست من إقناعه ،

وقالت بهدوء وحزم :

ـــ سأكون إلى جانبك .

ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها ، وقال بتوسل :

ـــ نيتو قريس ، إن الشعب يريدك ، وحسنا أراد . فأنت جديرة بحكمه فابقى له . إياك وأن تظهرى إلى جانبى فيقولوا إن الملك يحتمى بزوجه أمام الشعب الغاضب .

ـــ وكيف أتخلى عنك ؟

ـــ افعلى هذا من أجلى ، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى إلى الأبد .

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد ، فصاحت يائسة :

ـــ يا للساعة الرهيبة !.

فقال الملك :

ـــ هذه رغبتى نفذيها إكراما لى ، لا تقاومى وحق والدينا ، فإن كل دقيقة تمر يسقط جنود بواسل بغير ثمن . الوداع أيتها الأخت الكريمة ، أنا ذاهب موقنا بأنك لن تلطخينى بالعار فى ساعتى الأخيرة ، إن من يتمتع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن يقنع بالأسر فى قصر . فالوداع أيتها الدنيا ، الوداع أيتها اللذات والآلام .. الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء . لقد مجت نفسى كل شىء ، فالوداع الوداع ..

وهوى بفمه فقبل رأسها ، والتفت إلى تمثالى والديه ، وانحنى لهما ، ثم ذهب .

ووجد سوفخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية ، جامدا كتمثال أخنى عليه القدم ؛ فلما رأى مولاه دبت فيه الحياة وتبعه فى سكون ، وفسر خروجه على هواه ، فقال :

— سيبث ظهور مولاى روح الحماس فى قلوبهم الباسلة .

فلم يجبه الملك . وهبطا الأدراج معا إلى ممر الأعمدة الطويل الذى يصل ما بين الحديقة والفناء ، وأرسل فى طلب طاهو ، وانتظر صامتا . وفى تلك اللحظة نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية ، إلى بيجة .. وتنهد من أعماق قلبه ، لقد ودع كل شىء إلا أحب الناس إليه ، فهل تحم النهاية قبل أن يلقى نظرة على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة ؟.. وأحس قلبه بحنين أليم وحزن شديد ، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحييه ، فاندفع بقوة لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلا :

— هل النيل آمن ؟.

فأجابه القائد قائلا ، وكان ممتقع الوجه شديد الشحوب :

— كلا يا مولاى . ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلحة ، ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء ، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا .

ولم يكن القصر الذى يهم الملك ، لذلك أحنى رأسه ، وقد أظلمت عيناه . سيموت قبل أن يلقى نظرة وداع على الوجه الذى باع الدنيا ومجدها من أجله . ترى ماذا تفعل رادوبيس فى هذه الساعة المفجعة .. هل بلغها ما أصاب آمالها من الانهيار ، أم أنها ما تزال تتيه فى وديان السعادة ، وتنتظر عودته بفارغ الصبر ؟!.

ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه ، فطوى آلامه فى صدره ، وقال لطاهو آمرا :

— مر جنودك أن تخلى الأسوار ، وتكف عن القتال ، وتعود إلى ثكناتها .

فاستولت الدهشة على طاهو ، ولم يصدق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج :

— ولكن الشعب يقتحم الباب توا !

ولبث طاهو واقفا لا يبدى حراكا ، فصاح الملك بصوت كالرعد دوى دويا

مخيفا فى ممر الأعمدة :

ــ اصدع بما أمرت .

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه ، وتقدم فرعون بخطى ثابتة نحو فناء القصر ، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة ، وقد رآه الضباط والجنود ، فسلوا أسيافهم وأدوا التحية ، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له :

ــ عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته ، ونادى فى الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها فى الجناح الجنوبى من القصر . وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله ، ولا تكاد تحمله قدماه الضعيفتان ، وقد أدرك ما يريده مولاه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة .

ومضت الجند تخلى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب ، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوى فى نظام إلى ألويتها ، ثم تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدمها ضباطها . وما لبثت أن خلت الأسوار ، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادى المنوط بها واجب الحراسة فى أوقات السلام .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر وإلى يمينه سوفخاتب . وعاد طاهو لاهثا ، ووقف إلى يساره ، وقد بدا على وجهه كالشبح المخيف . وكان كلا الرجلين يرغب فى التوسل إلى الملك برغبة حارة ، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة ، بدد شجاعتهما ، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك إليهما ، وقال بهدوء :

ــ لماذا تنتظران معى ؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب ، ولم يستطع طاهو إلا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسل وإشفاق :

— مولاى .

أما سوفخاتب فقال بهدوء غير عادى :

— إذا أمرنى مولاى بالتخلى عنه سأصدع بأمره لا محالة ، ولكننى سأزهق نفسى فى الحال .

فتنهد طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذى أعياه طلبه ، وتمتم قائلا :

— أحسنت أيها الرئيس .

وسكت فرعون ، ولم يقل شيئا .

وفى أثناء ذلك كانت توجه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة ، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجئ ، وتوهموا أنه ينصب لهم شراكا قاتلا ، فوجهوا كل قوتهم إلى الباب ، ولم يحمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فتزعزعت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا ، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة ، وانتشروا فى الفناء كغبار ريح الصيف . وكانوا يتدافعون بعنف ، وكأنهم يتقاتلون ، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور . وما زالوا فى تقدمهم حتى شارفوا القصر الفرعونى ، ولمحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه ، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيدا لهم . وتشبثت أقدام الذين على الرءوس بالأرض ، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم ، وصاحوا فى الجموع :

— مهلا .. مهلا .

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الذهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضاءهم ، ويزيغ أبصارهم ، وتوقع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنه الأسود . ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب

سوفخاتب ، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة ، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد ، فامتدت يد إلى قوسها ، ووضعت سهما فى كبده ، وسددته إلى فرعون وأطلقته ، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقر فى أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء ، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذى أصيب ، ومد يديه يسند الملك فالتقتا مع يدى طاهو الباردتين . وأطبق الملك شفتيه فلم يخرج منهما أنين ، ولا آهة ، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطب جبينه ، وارتسم عليه الألم ، وأحس سريعا بخور وضعف ، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدى رجليه المخلصين .

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب ، وعقد الألسنة صمت ثقيل : وهلعت الأعين ، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذى يعتمد على رجليه تتحسس يده موضع السهم فى صدره فيلطخها الدم الساخن المتدفق بغزارة ، وكأنهم لا يصدقون أعينهم ، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية .

ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل :

ـــ ماذا هنالك ؟

فقال آخر بصوت خافت :

ـــ قتل الملك !!.

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية ، وتصايح بها الناس ، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياع .

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا ، فجرى الرجل إلى داخل القصر ، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد ، فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأناموه فى رفق . وانتشر الخبر داخل القصر ، فجاء طبيب الملك مسرعا ، وظهرت خلفه الملكة ، وكانت تسرع الخطا فى اضطراب باد ،

ولما وقعت عيناها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعة ، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب ، وهى تقول بصوت متهدج :

ـــ يا للويل .. قد أصابوك يا مولاى كمشيئتك !

وشاهد القوم الملكة ، فصاح واحد منهم :

ـــ جلالة الملكة .

وانحنت هامات الشعب الواجم كأنه فى صلاة جامعة . وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى ، ففتح عينيه المغمضتين ، ومضى يقلبهما فيمن حوله فى هدوء وضعف وكان سوفخاتب يحملق فى وجهه فى ذهول وصمت ، وكان طاهو جامدا ووجهه كوجوه الموتى ، وكان الطبيب يفحص الجرح ، يكشف عنه قميص الزرد . أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم ، وقالت للطبيب :

ـــ أليس بخير ؟. قل لى إنه بخير !

فأدرك الملك ما تقول ، وقال ببساطة :

ـــ كلا يا نيتوقريس ، إنه سهم قاتل .

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم ، ولكن الملك قال له :

ـــ دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب .

واشتد التأثر بسوفخاتب ، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرا تاما :

ـــ ادع جندك ، وانتقم لمولاك من المجرمين .

وبدت على الملك المضايقة ، فرفع يده بصعوبة ، وقال :

ـــ لا تتحرك يا طاهو ، هل هانت عليك أوامرى يا سوفخاتب فى رقادى هذا !. لا قتال بعد الآن ، قولوا للكهنة إنهم بلغوا غايتهم ، وأن مرنرع الثانى على فراش الموت ، فليرجعوا بسلام .

وسرت رعدة فى جسم الملكة فمالت على أذنه ، وقالت همسا :

— مولاى! لا أحب أن أبكى أمام قاتليك ، ولكن ليطمئن قلبك ، فوحق أبوينا ، وحق الدم الزكى لأنتقمن من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا بعد جيل .

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته ، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن ، ووضع بعض الأعشاب حول السهم ، واستسلم الملك إلى يديه ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة ، ولم ينس فى رقاده الوجه الحبيب الذى تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة فلاحت فى عينيه نظرات حنين ، وقال بصوت خافت بغير وعى منه إلى ما حوله :

— رادوبيس .. رادوبيس .

وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعته ، وأحست بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها ، فرفعت رأسها وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالا إلى شعور الآخرين ، فأومأ إلى طاهو ، فبادر الرجل إليه . فقال له برجاء :

— رادوبيس .

فقال القائد :

— هل آتى بها يا مولاى ؟

فقال بصوته الخافت :

— كلا .. احملنى إليها ، فى قلبى بقية حياة أريد أن تنفد فى بيجة .

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة فى ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء :

— نفذ مشيئة مولاى .

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قولها ، فقال لها :

— أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه أيضا .. إنها رغبة ميت .

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنت على جبينه ولثمته ، ثم أوسعت للعبيد .

الــوداع

انحدرت السفينة فى هدوء متجهـة صوب جزيـرة بيجـة ، والهودج فى مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه ، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه .. وكانت هذه أول مرة يخيم فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولاها نائما مستسلمـا ، يغشى وجهه ظل الموت . وكان الرجـلان يلازمـان الصمت وعيناهما الحزينتـان لا تفارقـان وجـه الملك الشاحب ، وكان يرفـع جفنيـه الثقيلتين ، وينظر إليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما فى تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا ، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبى .

ومال طاهو على أذن سوفخاتب ، وهمس قائلا :

ـــ أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة .

ولم يكن سوفخاتب فى تلك الساعة الرهيبة يبالى شعور إنسان ، فقـال باقتضاب :

ـــ افعل ما بدا لك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :

ـــ يا له من نبأ لا يدرى الإنسان كيف يؤديه إليها .

فقال سوفخاتب بحدة :

ـــ ماذا تخشى أيها القائد ؟!. إن من يبتلى بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابا لمحذور .

قال سوفخاتب ذلك ، وغادر المقصورة مسرعا ، وصعد درجات السلم إلى الحديقة ، واخترق الممشى مهرولا حتى انتهى إلى البركة ، فاعترضت سبيله الجارية شيث ، وقد دهشت الجارية لمرآه ، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالى . وفتحت فاها لتكلمه ، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة :

ــ أين سيدتك ؟.

فقالت شيث :

ــ مسكينة سيدتى لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا . وما زالت تدور بالحجرات ، وتطوف بالحديقة حتى ...

وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة :

ــ أين سيدتك ؟.

فقالت مستاءة :

ــ فى الحجرة الصيفية يا سيدى .

وأسرع الرجل إلى الحجرة . ودخل متنحنحا ، وكانت رادوبيس جالسة على كرسى مسندة رأسها إلى يدها ، فلما أحست بالداخل التفتت إليه ، وسرعان ما عرفته ، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزا ، وقالت باهتمام وقلق :

ــ الرئيس سوفخاتب .. أين مولاى ؟..

فقال الرجل الغارق فى حزنه بذهول :

ــ سيأتى عما قليل ..

فضمت يدها إلى صدرها فرحا ، وقالت بصوت بهيج :

ــ لشد ما عذبتنى المخاوف على سيدى ، لقد بلغنى أنباء العصيان المحزنة ، ثم انقطع عنى كل شىء ، فتركت وحدى إلى وساوس قلبى .. متى يأتى سيدى ؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولا بين يديه فاعتورها القلق وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه :

ــ ولكن لماذا بعثك إلىّ ؟

فقال الوزير بجمود :

ــ صبرا يا سيدتى ، فلم يرسلنى أحد ، والحقيقة الأسيفة أن مولاى أصيب .

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داميا ، فحملقت فى وجه الوزير الكئيب فزعة ، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرى مرتعشة ، فقال سوفخاتب الذى أفقده الحزن شعوره :

ــ صبرا صبرا .. سيصل مولاى محمولا على هودجه كمشيئته . لقد أصيب بسهم فى هذا اليوم المنكود الذى غدا عيدا وأضحى مأتما مروعا .

ولم تحتمل المكوث فى الحجرة ، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيحة ، ولكنها لم تكد تجاوز العتبة حتى سمرت قدماها فى الأرض ، وثبتت عينيها على الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة ، فأفسحت لهم الطريق ، وهى تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر ، ثم تبعتهم على الأثر . وقد وضعوا الهودج فى حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجا ، وخرج فى ذيلهم سوفخاتب ، وخلا المكان لها وله .. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه ، وشبكت أصابع يديها وشدت عليها بقسوة وبحالة عصبية عنيفة ، ونظرت إلى عينيه الساهمتين الذابلتين ، وقد انقطعت منها الأنفاس ، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب ، فرأت بقع الدم والسهم النافذ ، فاقشعر بدنها بحالة ألم جنونى ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفزع :

ــ أصابوك .. يا للهول !.

وكان نائما فى تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة فى الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبت فيه نسمات حياة رقيقة ، ولاح فى عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة .

ولم تكن تراه إلا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجن ، وهى تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل ، وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا ، وقالت بتألم :

ــ كيف تركوه فى صدرك ؟!. هل أستدعى الطبيب ؟!.

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة ، وقال بصوت ضعيف :

ــ لا فائدة .

فلاحت فى عينيها نظرة جنونية ، وقالت بصوت العتاب :

ــ لا فائدة يا حبيبى .. كيف تقول هذا ؟.. هل هانت عليك حياتنا !.

فمد يده فى ضعف شديد حتى مست كفها الباردة ، وهمس قائلا :

ــ هى الحقيقة يا رادوبيس ، لقد جئت لأموت بين يديك فى المكان الذى أحببته أكثر من أى مكان فى الدنيا .. فلا تندبى حظنا ، وامنحينى صفاء .

ــ مولاى ، أتنعى إلىّ نفسك ؟!. يا لساعة الأصيل هذه ، كنت أنتظرها يا حبيبى بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل ، وكنت أرجو أن تجىء حاملا إلىّ بشرى الفوز ، فجئت حاملا إلىّ هذا السهم .. كيف لى بالصفاء ؟!.

فازدرد ريقه بصعوبة ، وقال بتوسل وبصوت كالأنين :

ــ رادوبيس تناسى هذا الألم وادنى منى ، أريد أن أنظر إلى عينيك الصافيتين .

إنه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته ، أما هى فكانت تعانى آلاما لا قبل لإنسان بها ، وكانت تود لو تنفس عن

صدرها المضطرم بالصراخ والعويل والهذيان ، أو تلتمس الشفاء فى الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم ، فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه بالوجه الذى أحبه وسكن إليه دون العالمين .. وكان يتابع النظر إليه برجاء ، فقال بحزن :

ــ ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس .

فقالت بأسى وحزن :

ــ هما عيناى يا مولاى ، ولكن جف ما يمدهما بالنور والحياة .

ــ أواه يا رادوبيس، ألا تريدين أن تنسى آلامك هذه الساعة إكراما لى.. أريد أن أرى وجه رادوبيس حبيبتى ، وأن أستمع إلى صوتها العذب .

ونفذ رجاؤه إلى قلبها ، فكبر عليها أن تحرمه من شيء يريده فى تلك الساعة السوداء ، وقست على نفسها قسوة شديدة ، فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفتيها المرتعشتين ابتسامة وحنت عليه فى سكون واطمئنان كأنما تحنو عليه ، وهو يرقد رقاد غرام ، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا ، وانفرجت شفتاه الباهتتان عن ابتسامة .

ولو أنها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا ، ولكنها نزلت على إرادته العزيزة ، وملأت عينيها من وجهه ، وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد ، وأنها لن تراه فى هذه الدنيا مهما تألمت أو تأوهت أو سكبت الدمع الحزين ، وأن صورته وحياته وحبه ستغدو ذكريات ماض غريب، هيهات أن يصدق قلبها المكلوم أنه كان يوما حاضرها واستقبالها. كل هذا لأن سهما مجنونا استقر فى هذا الموضع من صدره . كيف يستطيع هذا السهم الحقير أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها !.. وتنهدت المرأة تنهدا حارا صعد فتات قلبها ، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة فى صدره ، المضطربة فى أنفاسه ، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه ، وماتت حواسه ،

وأظلمت عيناه ، ولم يبق منه إلا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا ، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس . وتجلى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث ، وأمسك يدها التى امتدت إليه فى فزع لا يوصف ، وصاح بقوة :

— رادوبيس اسندى رأسى .. اسندى رأسى .

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه ، ولكنه شهق شهقة قوية ، وأسقطت يده إلى جانبه ، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت . وأعادت رأسه إلى وضعه الأول بسرعة ، وصرخت صرخة فزع شديدة عالية ، ولكنها كانت قصيرة ، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه ، وتصلب لسانها ، والتحم فكاها بشدة ، وحملقت فى وجه الذى كان إنسانا بعينين جامدتين ، ثم لم تبد حراكا .

وأذاعت صرختها الخبر الأليم ، فهرع الرجال الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا أمام الهودج ، ألقى طاهو هلى وجه الملك نظرة ذاهلة ، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة ، وتقدم سوفخاتب من الجثة ، وانحنى فى إجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع جرى على خديه وتساقط على الأرض ، وقال بصوت متهدج مزقت نبراته الباكية الصمت المخيم :

— سيدى ومولاى ، وابن سيدى ومولاى ، نستودعك الآلهة العلية التى اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية . وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفانية ، ولكنها إرادة الرب التى لا ترد . فالوداع يا مولاى الكريم .

ومد سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء ، وسجى الجثة فى أناة ، وانحنى مرة أخرى ، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين .

وظلت رادوبيس جاثية ، فى غفوة من الذهول لا تفيق ولا تتحول عيناها عن الجثة ، وقد سرى فى جسمها جمود غريب كالموت ، فلم تبد حراكا ، ولا بكت ، ولا صرخت ، وظل الرجال فى وقفتهم منكسى الرءوس .. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج ، وقال :

ـــ وصيفة الملكة .

والتفت الرجال إلى الباب ، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها الحزن الشديد ، فانحنوا لها تحية ، فردت التحية بإيماءة من رأسها ، وألقت نظرة على الجثة المسجاة ، ثم ردت ناظريها إلى سوفخاتب ، فقال الرجل بصوت حزين :

ـــ انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة .

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة ، ثم قالت :

ـــ ينبغى إذا أن تحمل الجثة الكريمة إلى القصر الفرعونى ، هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير .

واتجهت الوصيفة نحو الباب ، وأومأت إلى العبيد ، فهرعوا إليها مسرعين ، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج . وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه ، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحس بشىء مما يدور حولها ، وتساءلت بصوت مبحوح غريب :

ـــ إلى أين .. إلى أين ؟.

وارتمت على الهودج ، فتقدم منها سوفخاتب وقال :

ـــ إن القصر يريد أن يؤدى واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالت المرأة الذاهلة :

ـــ لا تأخذوه منى .. انتظروا .. سأموت على صدره .

وكانت الوصيفة تتعالى بناظريها عن رادوبيس ، فلما سمعت قولها قالت

بخشونة :

ــ إن صدر الملك لم يخلق لكى يكون لحدا لإنسان .

وانحنى سوفخاتب على المرأة ، وقبض على معصمها برقة ورفعها بهدوء ، وحمل العبيد الهودج ، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه ، وأدارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين ، وصاحت بصوت متقطع كالحشرجة :

ــ لماذا تأخذونه .. هذا قصره .. وهذه حجرته .. كيف تسومونني القهر أمامه .. إن مولاى لا يرضى عمن يسيء إلىّ .. أيها القساة .. أيها القساة .

ولم تبالها الوصيفة ، فشقت طريقها إلى الحديقة ، وتبعها العبيد يحملون الهودج . وغادر الرجال الحجرة فى خشوع وصمت . وكادت المرأة تجن . وجمدت فى مكانها لحظة قصيرة ، وهمت باندفاع وراءهم ، ولكن يدا غليظة أمسكت بذراعها ، فحاولت التخلص منها ، ولكن ضاعت محاولتها هباء .

فالتفتت إلى الوراء بعنف وغيظ ، فوجدت نفسها وجها لوجه أمام طاهو ..

نهــاية طــاهو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنها لا تعرفه ، وحاولت أن تخلص ذراعها ، ولكنه لم يمكنها من غايتها ، فقالت له بعنف :

ــ دعنى أذهب ..

فهز رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنه يقول لها : كلا كلا .. وكان وجهه رهيبا مخيفا ونظرة عينيه جنونية ، وتمتم قائلا :

ــ إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقيهم إليه .

ــ دعنى أذهب لقد خطفوا سيدى .

فاربد وجهه ، وقال لها بلهجة عنيفة كأنه يلقى أمرا عسكريا :

ــ لا تقاومى رغبة الملكة الحاكمة .

فسكت عنها الغضب فى خوف وكفت عن المقاومة . واستسلمت استسلاما غريبا ، وقطبت جبينها ، ثم هزت رأسها فى حيرة كأنها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتت الذاهل ، وحدجته بنظرة غرابة وإنكار وقالت :

ــ ألا ترى أنهم قتلوا مولاى .. قتلوا الملك !

وكانت عبارة «قتلوا الملك» تقع من أذنيه موقعا غريبا مروعا فسكن هياجه ، وقال :

ــ نعم يا رادوبيس ، قتلوا الملك ، وما كنت أحسب قبل اليوم أن سهما يمكن أن يقضى على حياة فرعون .

فقالت ببساطة البله :

— فكيف تدعهم يخطفونه منى بعد ذلك ؟!.

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة ، وقال :

— أتريدين أن تتبعى أثرهم ؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس ، إنك تعمين عن العواقب ، فقد أذهلك الحزن ، إصحى أيتها الفاتنة ، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان ، وانتزعت زوجها من بين يديها ، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء .. إنها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبلة بالسلاسل ، ثم تدفع بك إلى أيدى جلادين لا يعرفون الرحمة يحلقون شعرك الحريرى ، ويسملون عينيك السوداوين ، ويجدعون أنفك الدقيق ، ويصلمون أذنيك الرقيقتين ، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوهة يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشئومة التى أتلفت الملك على نفسه ، ثم أتلفته على شعبه .

وكان طاهو يتكلم بلهجة تشف عن غل وعيناه تبرقان بنور مخيف ؛ ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها ، وسهمت إلى شيء غير منظور فى هدوء غريب ، ثم هزت منكبيها فى استهانة وبساطة . فاحتدم فى قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها ، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشد عليها ، وشعر برغبة فى أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطمه تحطيما ، ويمتع ناظريه بتشوهه ، وتفجر الدم من مسامه ومنافذه ، ولبث دقيقة يتفرس فى وجهها الهادئ الذاهل ، ويحاور رغبته الشيطانية ، ولكنها رفعت عينيها إليه دون أن يلوح فيهما معنى من معانى الحياة ، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسا بجريمة ، فتراخت أصابعه ، وتنهد تنهدا عميقا ثقيلا ، ثم قال :

— أراك لا تكترثين لشيء .

وكانت لا تلقى إلى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحادث نفسها :

ــ كان ينبغى أن نتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

ــ كلا .. كلا .. ما عاد كلانا يصلح للدنيا .. ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد .

فقالت ببساطة وهدوء :

ــ أخذته منى .. أخذته منى :

ــ فعلم أنها تعنى الملكة . وهز منكبيه قائلا :

ــ لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فحدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

ــ يا أحمق يا جاهل ألا تعلم .. لقد قتلته الخائنة لتسترده .

ــ من الخائنة .

ــ الملكة ، هى التى أفشت سرنا وأثارت الشعب . هى التى قتلت مولاى .

وكان ينصت إليها فى صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة ، فلما انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

ــ أخطأت يا رادوبيس ، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة .

وحملق فى وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار ، ثم قال بصوت رهيب :

ــ إن كان يهمك أن تعرف الخائن ، فها هو ذا يقف أمامك .. أنا الخائن يا رادوبيس .. أنا ..

ولم يهمها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة . ولكنها هزت رأسها

هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء . فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفيها بغلظة ، وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :

ـــ اصحى ، ألا تسمعين ما أقول .. أنا الخائن .. طاهو الخائن .. أنا علة الكوارث جميعا ..

وارتعد جسمها بعنف ، وانتفضت انتفاضا شديدا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات ، وهى تنظر إلى وجهه الفزع بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه ، وقال بهدوء وبلهجة حزينة :

ـــ إنى أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ، لأنى أشعر شعورا صادقا أنى لست من أهل الدنيا . لقد انقطع ما بينى وبين العالم جميعا ، ولا شك فيما أحدثه اعترافى لك من الفزع ، ولكنها الحقيقة يا رادوبيس ، لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى الألم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها إلى الأبد .

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استطرد قائلا :

ـــ وانطويت على الألم ، واستوصيت بالصبر والتجلد ، واعتزمت صادقا أن أؤدى واجبى إلى النهاية ، حتى كان ذلك اليوم الذى دعوتنى فيه إلى قصرك لتستوثقى من إخلاصى . فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دمائى ، فهذيت هذيانا غريبا ، واستاقنى الجنون إلى عدو متربص ، فأفضيت إليه بسرنا ، وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من وراء الظهور .

واهتاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر إلى وجهها الفزع بقسوة ، فعاوده الغضب والحنق ، وصاح :

ـــ أيتها المرأة الهلوك المدمرة . لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه . لقد عذب قلوب بريئة ، وخرب قصرا عامرا ، وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا

أمينا ، ولوث قلبا شريفا .. إنه لشؤم ولعنة ..

وسكت طاهو ، وما زال الغضب يغلى فى شرايينه ، ورآها كصورة للعذاب والخوف ، فأحس ارتياحا ولذة ، وتمتم قائلا :

— ذوقى العذاب والهوان ، وانظرى الموت فما ينبغى لأحدنا أن يحيا ، وقد مت منذ زمن بعيد ، ولم يبق لى من طاهو إلا ثيابه المزركشة المجيدة ، أما طاهو الذى اشترك فى غزوة النوبة ، وأبلى بلاء حسنا استحق به ثناء بيبى الثانى ، طاهو قائد حرس مرنرع الثانى ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له ..

وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله . وبدا على وجهه الضيّق والجزع الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ، ولا رؤية رادوبيس التى استحالت تمثالا جامدا . فنفخ فى الهواء بقوة وسخط واشمئزاز ، وقال :

— ينبغى أن ينتهى كل شىء ، ولكنى لن أحرم نفسى من العقاب الصارم ، سأذهب إلى القصر ، وأدعو كل من يحسن بى الظن ، ثم أعلن جريمتى للملأ ، وأمزق الستار عن الخائن الذى طعن مولاه وهو يساره ، وأنزع النياشين التى تحلى صدرى الآثم ، وأرمى بسيفى ، ثم أطعن قلبى بهذا الخنجر .. فالوداع يا رادوبيس ، والوداع أيتها الحياة التى تستأدينا فوق ما تستحق ..

نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب ...

النهــاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذى يحمل بنامون بن بسار إلى سلم الحديقة . وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معفر الثياب ، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس . وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى فى طريق العودة ما هون عليه ما صادفه فى الذهاب ، وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير فى ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض ، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب ، وانتهى به المسير إلى الحجرة ، فاجتاز عتبتها ، وهو يظن أنها خالية . ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه . ورأى رادوبيس جالسة فى استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة ، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب فتردد هنيهة ، وأحست شيث بمقدمه ، والتفتت إليه رادوبيس ، ثم قامت الجارية وانحنت له تحية وغادرت الحجرة ، وتقدم الشاب من المرأة ، وقد لفه الفرح ، فلما أن تبين وجهها عن كثب ركدت حركة نفسه ، وأصابه الوجوم والغم، ولم يشك فى أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته ، وأن أنباء الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل ، فألبسته هذا الرداء الغليظ من الكدر . وركع بين يديها ، ثم مال على حاشية ثوبها فقبلها بحنان ، ونظر إليها بعينيه الصافيتين نظرة إشفاق كأنه يقول لها : « فداؤك نفسى » ، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح ، فخفق قلبه خفقة السعادة ، وتخضب وجهه بالاحمرار ، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف :

ـــ غبت طويلا يا بنامون .

فقال الشاب :

ـــ لقد شققت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين : إن آبو اليوم تغلى وتفور وتنثر الشظايا المحرقة ، فتملأ الجو حمما ..

ثم دس الشاب يده فى جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة ، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها ، وأحست ببرودتها تسرى فى جسمها وتستقر فى قلبها . وسمعته يقول لها :

ـــ أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحتمل .

فقالت له :

ـــ إن الأحزان تنتقل بالعدوى .

ـــ ولكن رفقا بنفسك ، فما ينبغى لك أن تستسلمى كل الاستسلام إلى الحزن .. ليتك يا مولاتى تهاجرين إلى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه فى اهتمام خادع ، وتنظر إليه بغرابة ، نظرتها إلى آخر حى من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقا لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كثب .. وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها فلعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع فقال بحماس :

ـــ أمبوس يا مولاتى بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها إلا سماء صافية ، وطيرا لاهيا ، وبطا سابحا ، وأخضر ناضرا .. وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى أثارتها فى نفسك الرقيقة آبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة ، وأحست بشوق إلى النهاية . فبحثت عيناها الموضع الذى شغله الهودج منذ حين ، وصرخ قلبها أن ها هنا ينبغى أن تختم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من بنامون ، فقالت له :

ـــ إن ما تعرضه علىّ جميل يا بنامون ، فدعنى أفكر وحدى رويدا ..

فأضاء وجه الشاب بالفرح والأمل ، وسألها :

ـــ هل يطول انتظارى ؟

فقالت :

ـــ لن يطول انتظارك يا بنامون .

فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة .

ودخلت شيث على الأثر ، وكانت رادوبيس تهم بترك مجلسها ، فلما رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلص منها :

ـــ إلى بإبريق من الجعة .

فذهبت الجارية إلى القصر ، وكان بنامون قد اتجه إلى البركة واطمأن إلى مقعد على حافتها ، وكان فى تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة ، ويدنى إليه الأمل غايته فى أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيدا عن الشقاء المخيم على آبو فتخلص له ، ويسكن إليها ، ودعا الآلهة أن تهبط إليها فى وحدتها وتلهمها الرأى السديد والحل السعيد ..

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة ، ولما أتم دورته رأى شيث تحمل إبريقا ، وتتجه بسرعة إلى الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب ، وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى ، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة فانتفض واقفا ، وقد انخلع قلبه فى صدره ، واندفع جريا

إلى مصدرها ، فرأى فى وسط الحجرة رادوبيس ملقاة على الأرض ، والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها وتنكب عليها تناديها ، وتجس خديها وكفيها .. فهرع إليها بساقين مرتجفتين . وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفزع ، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكف رادوبيس بين كفيه ، فشعر ببرودتها ، وكانت كالنائمة ، إلا أن وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة ، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها ، وانسابت ضفائر منه على البساط ، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه ، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

ــ ماذا بها يا شيث .. لماذا لا تجيب ؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

ــ لا أدرى يا سيدى ، فلقد وجدتها عند دخولى الحجرة كما تراها الآن ، فناديتها فلم تجب ، وأسرعت إليها أهزها فلم تنتبه ، ولم تبد عليها اليقظة ، أواه يا مولاتى .. مالك ما الذى اعتورك فحولك إلى ما أرى ؟.

ولم ينبس بنامون بكلمة ، وجعل يطيل النظر إلى المرأة الملقاة فى سكون رهيب ، وإن عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة ، فشهق شهقة عنيفة ، والتقطها بأصابعه المرتعدة ، فلم يجد بها إلا آثارا لاصقة بباطنها ، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبين له الحق ، وسرت فى جسمه النحيل رجفة مزقت جوارحه ، فأن أنينا موجعا لفت إليه الجارية ، وقال بصوت فزع :

ــ يا للهول .. يا للرعب !

فصوبت إليه الجارية عينيها ، وسألته بلهفة وذعر :

ــ ماذا يهولك ويرعبك ؟.. تكلم فإنى أكاد أجن من الحيرة !!

ولكنه لم يأبه لها ، وقال يحادث رادوبيس ، وكأنها تسمعه وتبصره :

ــ لماذا انتحرت ... لماذا انتحرت يا مولاتى ؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيدها ، وقالت :

ــ ماذا تقول ، كيف علمت أنها انتحرت يا هذا ؟

فرمى القارورة بعنف ، فاصطدمت بالحائط وتحطمت ، ثم قال بذهول وحيرة :

ــ لماذا أزهقت نفسك بهذا السم ؟.. ألم تعدينى بأن تفكرى جديا فى اصطحابى إلى أمبوس بعيدا عن أحزان الجنوب .. أكنت تخدعيننى ريثما تزهقين روحك ؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة ، وقالت بدهشة :

ــ من أين لمولاتى بالسم ؟.

فهز منكبيه يأسا ، وقال :

ــ أتيت لها به بنفسى .

فتولاها الغيظ ، وصاحت به :

ــ كيف تأتى به يا شقى ؟!

ــ لم أكن أدرى أنها تريده لتزهق به نفسها ، لقد خدعتنى كما فعلت بى الآن .

فتحولت عنه يائسة ، وأفحمت فى البكاء ، وانكبت على قدمى مولاتها تقبلهما وتغسلهما بدموعها ، وغشى الشاب ذهول ، فتفجرت عيناه ، وثبتتا على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبدية ، وكان يعجب فى ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذى لم تشرق الشمس على مثله من قبل ، وكيف تسكن الحيوية الفائضة الملتهبة ، وتكتسى بهذا الإهاب الشاحب الذابل الذى تهم به عوامل الخراب ؟ تمنى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة ،

فأبدت عن ثتنيها الرقيق ، وأشرقت بوجهها ذى البهاء ابتسامة السعادة ، وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفتون ، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا ..

وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج ، فنهرها قائلا :

ـــ أمسكى عن هذا ؟

وأشار إلى قلبه ، ثم استدرك :

ـــ هنا حزن جليل ، أجل من البكاء والنحيب .

وبقى فى نفس الجارية أمل ضعيف يخفق ، فنظرت إلى الشاب خلل دموعها ، وقالت بتوسل :

ـــ ألا يوجد رجاء يا سيدى ؟. عسى أن يكون ما بها غيبوبة شديدة ؟!

ولكنه قال بصوته الحزين :

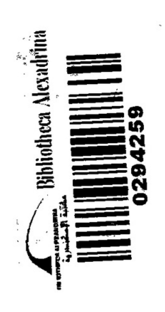
ـــ ما من رجاء ولا أمل ، ماتت رادوبيس ، ومات الحب ، وتبددت الأوهام .. كم عبثت بى الأحلام والأوهام .. أما الآن فقد انتهى كل شىء ، وأيقظنى من غفوتى الموت الرهيب ..

وانقصف آخر شعاع للشمس ، وانغمس وجهه القانى فى عين حمئة ، فزحفت الظلمة تغشى الكون فى ثوب حداد . ولم تنس شيث فى حزنها واجبها نحو جثة مولاتها ، وأدركت أنها لن تستطيع أن توفيها حقها من الإجلال والصون فى بيجة المحاطة بأعدائها والمتربصين للانتقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشاب الحزين الذى تحترق نفسه على كثب منها ، وطلبت إليه أن يحملا الجثة إلى بلدة أمبوس ، وهنالك يدفعان بها إلى أيدى المحنطين ، ويودعانها مقبرة أسرة بسار ، ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه ، فنادت شيث بعض الجوارى ، وأتين بهودج ، ووضعن الجثة عليه وسجينها .. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة الخضراء التى انحدرت به نحو الشمال .

وجلس الشاب عند رأس الجثة على مقربة من شيث ، وقد شمل المقصورة سكون عميق .. فى تلك الليلة الحزينة ، والسفينة تنساب مع المياة المصطخبة صوب الشمال ، تاه بنامون فى وديان قصية من الأحلام ، ومرت حياته أمام ناظريه فى صور متعاقبة ، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء ، وما ظن يوما أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير . ثم تنهد من أعماق قلبه المكلوم ، وثبت عينيه على الجثة المسجاة التى ارتطمت عليها آماله وأحلامه ، فتحطمت وتناثرت ، كأوهام بددتها اليقظة .

رقم الإيداع ٢٠٣٠
الترقيم الدولى ٣ — ٢١٣ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٤٠٠ قرش